حبيب الزحلاوي

ضحكات القدر

من فاروق إلى الثورة

مطبعة دار الهنا بشارع الصحافة ببولاق بمصر

تصـــــدير

تعمدت الخروج على ما هو مألوف فى بناء القصة بغية التدليل على أن ميدانها رحب يتسع للحياة بكل ما فيها ومن فيها واعتقاداً بأن القصصى فى مقدوره أن يلج أبواب الآداب والفنون والعلوم أيضاً ، وأن يلون الطبيعة بألوان تزيدها سناً وبهاء ؛ وأن يصور النفوس والأخلاق والعادات لا على الحالات التى فطرهم الله عليها ، بل على الحال التى يريد الكاتب المبدع أن تكون عليها من الجمال والحق والخير ، وأن يصف المجتمع وصفاً يراه المؤرخ أدنى إلى حقائق العصر وروحه .

وأزعم أن القصة تناجز الشعر وتصاوله بسلاح من أدب الشعر القائم على اللفظة الجميلة ، واللفتة البارعة ، والصورة الأخّاذة، ولعلها إنتصرت عليه لأنها تخاطب القلوب من وحى

شعورها والعقول من فيض حكمتها ، وتهمس فى أعماق النفس الإنسانية همسات روح الإنسان ، وتحاول بشتى وسائل الإغراء والتشويق أن تجتذب القارىء من أى طبقة ومن أى ثقافة .

كذلك أعتقد أن أولى واجبات الكاتب القصصى إستلفات نظر الغافلين إلى طيّبات الحياة . وإسترعاء انتباه الذاهلين إلى مفاتنها ، وإيقاظ وعيهم ليدركوا عجائبها وغرائبها.

هذا ما قصدت إليه وعسى أن أكون قد بلغت القصد .

حبيب الزحلاوى

احتدم الجدال بين الرفاق المجتمعين للسمر وتزجية الفراغ كعادتهم فى كل أسبوع ، وكان الحديث يدور حول الصديق كان الواحد ينكر وجود الصديق ويدلل على انعدام الصفات الواجب توافرها فيه والمزايا التى يتحلى بها، وكان الثانى لاينكر وجوده إطلاقا ويقول أن بعض الصفات لا كلها إذا وجدت تكفى للدلالة على وجوده. وكان الثالث يقول ان الصداقة والصديق مشتقان من الصدق الذى ليس له وجود ولا معنى فى هذا العصر ، وما هما إلا اسمان مساويان لأسماء العدالة والحق والحرية والمساواة وما يماثلها من الأسماء ذات الحدود المشاعة والمعانى العائمة والتفريعات النسبية والافتراضات الوهمية. وقال رابع لست من رأيكم فى الصداقة ولا من مذهبكم فى تعريف الصديق، لست يا رفاقى ممن يحملون الصديق أكثر مما حبته الطبيعة من خلائق وسجايا، ولا ممن يفترضون فى الصداقة أن تكون مثالية جامعة للفضائل كلها ، لأنى أومن بالصاحب فقط ، وهو خدن رفيق معروف موجود ، بيد أنى أكاد أقول فى الصديق أنه اسم لغير مسمى وأعتقد أن الصحبة تقارب

وتعاطف وتفاهم واطمئنان وتجاوب ، ورب خصيصة واحدة من هذه الخصائص أقرب إلى ذهنى ووجدانى من فضائل الوفاء والكرم والاريحية والنخوة والنجدة والصدق وما يماثلها من الفضائل الكريمة المفروضة حتما فى الصديق ، أننا يارفاقى نحمل الصداقة أكثر مما حملناها من فضائل مثالية ، وحملنا الصديق بدافع من أنانيتنا ما لا يطاق حمله . تصوروا معى أن رئيس الوزراء القائم بالأمر الآن هو خدنى فى طفولتى ورفيقى فى المدرسة وزميلى فى الجامعة ، وعشيرى فى صباى وشبابى ، وأنه اتجه ناحية السياسة فبلغ رياسة الوزارة ، واتجهت صوب التجارة فارتفعت فبلغت قمة عالية ومكانة مرموقة فهل من حقى على رئيس الوزراء ، بحكم المعرفة القديمة ودوام الألفة . أن أرغب إليه أن يعينني سفيراً للدولة فى انجلترا أو أميركا؟ وهل من حقه على بحكم المعرفة والألفة أيضاً ان أقرضه مبلغاً من المال يعز على إهداره؟ كيف يكون حال رئيس الوزراء إذا كان ممن يزنون الرجال بعقولهم ومعارفهم لا بأموالهم وعقاراتهم؟ وكيف يكون حالى اذا كنت من اولئك الذين يحسبون الفوائد البسيطة والفوائد المركبة ؟ بل كيف يكون موقفنا اذا رفض كل منا تحقيق رغبة

صاحبه ؟ برغم ذلك لا أوافق على إنكار الصديق ، ولا على تقويم الصاحب بقيمة الصديق ، هذا إذا وجد ، ولكنى أقول وأنادى بتجزئة الصديق ، وتقسيم الصداقة الى مقامات عشرية ومئوية ، وبالاكتفاء بما ينالنا من هذه التقسيمات ، وبكبت أنانيتنا من الالحاح فى الفروض،والتنصل مما يقابلها من واجبات، لأن اكثر أدعياء الصداقة انما يحبون منها الصداقة التى تسرهم

وقال آخر ' وقد خف حماس المجلس وفترت همة الذين يسايرون عواطفهم دائما ، ليس من اليسير أيها الرفاق لقاء صاحب يبادلنى الانجذاب والائتناس ، بل من العسير ايجاد صاحب أو رفيق أو فرد واحد لا تقوم مودته على غير الرياء والنفاق والطمع ، وأنه لمن الهناءة للإنسان أن يسعد بصاحب أو صاحبين تقترب مشاربهما وأذواقهما من ذوقه ومشربه ولو بعدت المسافة بين الثقافة والادراك ، والأهنأ من هذا أن نرضى عما نحب من صفات مبعثرة فى من نعرف

— هل تعنى بقولك هذا أن نصاحب كل من تعرف؟

— لست أقصد كل النـــاس ، انما لا أجد ما يضيرنى اذا

صاحبت من كان أرفع أو أوضع منى مكانة لصفة فيه حبيبة إلى نفسى

اختلط الكلام بين المتحدثين وأخذ يتشعب ويتناثر حتى كاد ينأى عن موضوع الصديق والصداقة والصاحب والرفيق

كان مجلسنا ذاك يضم طـــائفة من أصحاب الذهن النيِّر والثقافة الخاصة والعامة ، ولعل تنوع هذه الطائفة وتعدد مشاربها ، وتقارب نظراتها الى الحياة الأنسانية هى التى عاونت على إحكام الألفة ، وتوثيق عرى المودة بين أفرادها ، وجعلت جواذب الائتلاف أقوى من دوافع الانفصال ، إذ من المحتم فى جماعة كهذه أن يكون فيها من لا يستسيغ آراء هذا ، ويستثقل حديث ذاك ، و ينفر من سماع ما ينشد ذلك الشاعر من نظم سمج ، وكان هذا لا يحول دون انفراد هذا بذاك والأنسياق معه فى حديث خاص يفصلهما برهة من الزمن عن الاشتراك فى حديث الجماعة ، وربما كان ذانك المنفردان الغارقان فى حديث خاص ، أحدهما عالم متخصص فى علم ضيق محدود لا يمت بصلة الى الأديب الثانى المتخصص فى الآدب الذى يشمل الحياة ، ولكن التفاهم والائتناس نحّيا علم العالم جانبا ، وأبعدا أدب

لأديب بعيدا، فجعلا طبيعة المخلوقين الانسانيين تتجاوب روحاً لروح، وفى اعتقادى أن ذلك الارتباط على ما فيه من تجاوب روحى ليس من الصداقة والصديق فى شىء له وزن كبير أو قدر رفيع أو شأن عظيم فى الحقل المثالى .

لقد انفرط عقد ذلك المجلس بموت كبيره وتفرقت جماعته ، وراح كل واحد منهم يسعى الى رزق جديد من غذاء روحى فى حلقات أدبية أخرى. وما أنس أن نسيت رابطة كانت تربطنى بواحد من أولئك الرفاق — لا الأصدقاء — لم أشعر حين التقينا وتعارفنا بما يجذبنى اليه ، أقول انه لم يكن يحبنى ولم أكن أحبه ، ولكنى كنت أقدره قدره ويقدرنى قدرى . ولكن تكرار الاجتماعات ، ومواصلة الأحاديث ، ومراجعة الانسان نفسه فى أحكام كان أصدرها عفو الحدس اللدنى ، جعلتنى أغالط نفسى وأصحح حكمى الصحيح ، وليس العجيب فى ذلك أننا أخذنا نتقارب ونتفاهم بل العجيب حقاً أن صرت أحمله أثقال صدرى واوجاع روحى ، وكان يفضى إلى بمكنون همه وينشدنى قصائد آماله. ولما بحثت عن الباعث على ذلك التقارب ،والتفاهم، والتسارّ ، وجدت تماثل أعراض الداء، ووحدة الألم ، وتقارب

وجائعه فى نفسينا هى التى ألَّفت بيننا . واكبر الظن أنه متى برىء أحدنا من علته انفصمت عرى ذلك التقارب وانحلت من ذاتها

هذا الصاحب وسأقص عليكم واقعته الكبرى فى حياته كما سمعتها منه ووعتها ذاكرتى ، تدلكم على أن الصداقة لا وجود لها وأن مظاهر الانسان كلها باطنية كانت أو ظاهرية ، فى الذهن المثقف أو فى الفكر الساذج ، إن هى إلا اخداع ، وكذلك التعارف الاجتماعى والصلات الودية ، ومعاشرة الناس والتقرب اليهم، إن هى إلا وسيلة إلى ما سمى صداقة القصد منها إشباع الأنانية. فصاحبى ذلك الذى سأحدثكم عنه لم تتوطد الصلات بيننا إلا بعد أن عرف كل منا نفس صاحبه . فعلى معرفة النفس دون معرفة المظاهر تكون المودة ، وليست الفضائل الاجتماعية هى التى تجعل من الانسان صديقاً صادقاً ، بل النفس هى التى توجد الفضائل ، والنفس بطبيعتها ميالة الى التنفس ، فلا محيد للإنسان عن ايجاد إنسان آخر يبثه لواعجه . وأزعم لكم أن الكنيسة الكاثوليكية لم تبتدع الاعتراف إبتداعا بقصد الوقوف على أسرار أتباعها، بل فرضه المشرع الحكيم فرضاً ليخفف عن النفوس أثقالها ويزيل كبتها

بالاعتراف ويجعلها من الرجاء أقرب ، ومن الأمل أدنى وبه ألصق

قال أحدهم لقد أشبعت الموضوع تحليلا فهل لك أن تسمعنا قصة حياة صاحبك ذاك الذى اعترف بها اعترافاً كاثوليكياً ؟

قلت القصة طويلة متشعبة . فهل عندكم جلد على سماعها ؟

قال واحد هذا أمر متروك لقدرتك على اجتذاب حواسنا بالتشويق والصدق .

* * *

منذ غادر صاحبي ذاك مقاعد الدرس فى اوروبا عائداً إلى مصر فقد الألفة الروحية ولم يجد لتلك الفقيدة بديلا فى أهله وقومه ، وكان من عادته أن يسجل فى مذكرات حوادث حياته اليومية ، وقد أطلعت على البعض منها فاذا هى تحفل بسرد أحداث اليوم مفصلة بوقائعها المادية ونفحاتها الوجدانية بأسلوب أدبى بارع وأخاذ أيضاً ، الأمر الذى حدا بى إلى مطالبة ذلك الرفيق العالم المتخصص أن يسلك مسالك الأدب فأجاب أن ساعتى لم تحن للنشر الأدبى بعد . وقد لمحت من خلال قراءة تلك المذكرات صورة إمرأة تنبىء بوضوح أنها لم تكن تتلق

علوم ذلك الشاب ذاتها وتتدارسها معه فحسب . بل كانت تشاطره حياة الشباب بكل نزواتها ولهوها

ليس بالأمر الهين على شاب جاوز الأربعين من عمره عاش ربع أعوامه فى قلب أوربا النابض بالحياة النازية والفاشية والشيوعية ، أن يعود ليعيش فى القاهرة الراسفة فى قيود العبودية الملكية، وشرور ملك طاغ وحاشية زبانية فاجرة، ناهيك بالانحلال الخلقى فى الحكام والشعب . وتكالب هؤلاء جميعاً على سلب المال وجمعه بشتى الوسائل ، وإنفاقه على المرأة والقمار. وليس من السهل أن يجد مثل هذا الشاب فتيات نصفاً يختار منهن من قد تصلح لأن تتبوأ عرش قلب متعطش للحياة والحب،وليس من اليسير المضى فى هذا الوسط الفاقد جميع القيم دون أن يكون عرضة للتورط فى العيوب والتمرغ فى الرجس ، بل من العسير على الإنسان أن يتسامح فى حريته الشخصية وجلا من السلطان الغاشم أو يشترك فى إهدار الحريات تزلفا للحاكم الجشع . وهكذا تعقدت حياة ذاك الشاب . وقد فقد الألفة الروحية ، وأخفق فى العثور على فتاة تشاطره الحياة وأصيب بعدوى المجتمع فأخذه دوار جعله يترنح بين الهروب

من رزايا العصر ونوائبه الخلقية والاجتماعية . وبين الارتماء فى تياراته يشاطر السلابين فيعيش عيشة الرغد والجاه والسلطان التى تهفو نفسه إليها

إنقطع صاحبى عن ندوتنا ولكنه لم يكن يقصر فى السؤال عنى بالتليفون بين فينة وفينة . وفى دعوته إياى إلى زيارته فى صومعته التى لم يعد يبارحها إلا لقضاء عمله اليومى بالجامعة . وحدث ذات عشية أن رحت لزيارته على غير ميعاد ، فلما فتح الباب طالعنى وجه صاحبى وقد كان يلبس منامة لا أذكر أنى رأيته يلبسها قبل الليلة ، إذ كان يحافظ على أن يتجلبب بجلباب فضفاض واسع البنيقة رحب فتحة الصدر ، ينتعل نعال الفلاحين والقرويين ، ولمحت مسحة دكناء من الحزن تغشاه ولم تقو عبارة الترحيب بى ولا ابتسامته العريضة لى على مداراتها أو تغطيتها ، ولما ولجت القاعة ، وكانت مضاءة بمصابيح ملونة فى حبال ممدودة وأعلام من الورق منشورة فى أركانها ، ورأيت خوانا تتوسطه زجاجة من الويسكى غير مفضوضة من حولها أطباق مليئة بأنواع من اللحوم والسمك والتوابل وقدحان فارغان ، وصورة زيتية كبيرة مركزة فوق مقعد فى وسط القاعة فى إطار

بديع الصنع لسيدة فى نحو الأربعين من عمرها واضحة البدانة، شقراء الشعر ، واسعة الجبين ، سوداء العينين

نعم شقراء الشعر سوداء العينين !!

التفت إلى صاحبى أستوضحه بإشارة ونظرة استفهام فأومأ إلى الصورة وحنى رأسه وبكى

رجل يبكى ؟! لقد فاضت عينا صاحبى بدموع غزيرة ، وكنت أزعم أن الدمع شحيح فى الرجال ، وقد غطى وجهه بكفيه ، والرجل فيما أعتقد لا يخجله إلا الخزى

جلست أنتظر نضوب دموع الباكى وانحسار غمة صدره ، ورحت أقارن بين تكوّره فى جلسته فى ندوتنا مرفوع الرأس ، شامخ الأنف ، يقظ النفس ، لا يفارقه عبوس الأسد المتحفز، اللهم إلا نكتة ظريفة أو دعابة لطيفة تردّه إلى طفولته تتجلى ببسمته الحلوة ، وقسمات وجهه الحنطى ، فقلت فى سرى وأنا أتنهد ، ما أشقى الرجال بالنساء .

قمت إلى زجاجة الوسكى ففضضت ختمها وملأت كأسى من قطرها الذهبى وكسرته بالماء المعدنى والثلج وشربت نخب « الأسد الباكى » .

قرعَت عبارة « الأسد الباكى » (١) سمع صاحبى وهزت شعوره فنهض من مقعده وهو يمسح ما جف من دموعه على خديه ، وأخذ يبدى اعتذاره لى على مفاجأتى إياه بهذه الزيارة.

قلت مداعبا أين هذه المنامة الحريرية والخفّ المطرز من « البلغة » الصفراء والجلباب الفضفاض ؟

فابتسم وقال « إلبس لكل حالة لبوسها »

قلت وهذه المائدة العامرة «بالمنكر» المستطاب لمن هيأته ؟

قال « للذكرى »

قلت التى تنفع المؤمنين ؟

قال نعم ان المؤمن بالحب هوكالمؤمن ببارئه

قلت وهذه ، وأشرت بيدى إلى الصورة الزيتية

فقال « هى مبعث سعادتى ومصدر شقائى فلولا حبى لها وشقائى بها لما كان لحياتى معنى قط »

قلت متى ماتت هذه البدينة الشقراء ؟

قال « أنا الذى مت منذ رحلت عنها »

---

(١) عنوان قصيدة من روائع خليل مطران يقول فيها :

أنا الأسد الباكى أنا جبل الأسى أنا الرمس يمشى دامياً بين أرماس

قلت زدنى تعريفا بهذه المرأة البلقاء

لم يستسغ تسميتى صاحبته بالبلقاء فنظر إلى نظرة ذات معنى وراح إلى الغرفة المجاورة فأحضر ثمانية دفاتر يومية « أجندة » وقال وهو يلوّح لى بواحد منها « بهذه الدفاتر أحيا ومنها استقطر رمق ، ولولاها لكنت كالصحراء القاحلة أو القمة الباردة

قلت ماذا فى دفاترك هذه ؟

قال فيها تدوين وقائعى اليومية منذ بارحت مصر فى طلب العلم حتى عدت إليها بالزاد الذى يغذى قومى

قلت لقد أطلعتنى على واحدة منها فيما سبق ، والآن أسمعنى مذكرة واحدة منها ، فتناول دفتراً ففتحه فأخذ يتلو وصفا كالدر المنضد أو الشعر المنثور لليلية يوافق تاريخها يوم اجتماعنا هذا ، أتحرج فى نقل فقرات منها لأنها مزيج من الواقعية المكشوفة والرمزية التى تومى إلى أولى معارك الحب الدامية فى مطلع الشباب

قلت أين بيانك البديع هذا والأسلوب العذب السلس من دراسه الآثار وحفر القبور ونبش الدفين وفكّ لفائف وأكفان الموتى وتقليب الجثث وتموين سراج الذهن وايقاد فتيل الرويةواستلهام جنبات العقل تنير لك سبيل استنباط « تقليعة

هايفة » عن أَصحاب تلك المومياتِ الجافة المقددة فتدعى أنها من الأسرة الأولى أو العاشرة أو العشرين الفرعونية ، ولاراد لادعائك بالغ ما بلغ من السخف

فأجاب : فى الناس من يتعلم العلم لذاته ومنهم من يتوسل به لاشباع المعدة وأرضاء الرغبات أما الأدب فحياة وحب . وليس فى الوجود من لا يحب الحياة لأنها الحياة أَو يكره الحب لأنه الحب

قلت زدنى بيانا وتعريفاً بصاحبتك الشقراء البلقاء ، وبمسرح التمثيل هذا وأشرت بيدى إلى المائدة والصورة والأنوار والأعلام ، ثم إلى المنامة الحريرية والخف المطرز بخيوط القصب

قال أنت تستدرجنى إلى اعتراف لا محيد من حمل قسطك منه ، أما أنا وقد عزمت وتوكلت على الافضاء إليك بوجيعة قلبي ، فصار من الواجب على أن أستعين بكأس تحفزنى على الانطلاق بغير ما تمويه أو تورّع « وقام الى الزجاجة فهيأ كأساً أترعها ثم عبّها دفعة واحدة وارتد برشاقة وهو يتلمظ واقتعد مقعدا بالقرب منى وقال :

أخذت مكانى فى مقاعد الدرس بين طلاب الجامعة وأنا

لا أعرف من اللغة الألمانية سوى الكلمات المرسومة فى الكتاب المطبوع ، اما معانيها فقد كنت أستعين بالقاموس على فهمهما ، وكنت أيضاً أنطقها بصعوبة لا تخلو من تحريف لعسر مخارجها الصحيحة بعد تراكيبها،ولكنى كنت أفهم ما أقرأ، وأعى ما أسمع وأتوهم أن فى استطاعتى التعبير بالكتابة عما أفكر بتلك اللغة الشائكة

لاحظ طالب أنى أستنجد كثيراً بالقاموس،فرغب الى أن أستجير به ما دمت فى جواره ، وما كدت أستعين به حتى طوى كشحاً وأعرض عن مناصرتى

عذرت المسكين على الضيق بأسئلتى والهروب منى ، ولكن القدرة القادرة التى تشمل الغريب بعنايتها أسبغت على نعمة هى لا شك من نعم الله وإليك البيان

عندما نفر الطالب من جيرتى حلت محله هذه الفتاة الشقراء وأشار إلى الصورة الزيتية .....

قاطعت كلامه وكأنى أتممه وقلت وقد تعارفتما ، وصرتما تشتركان فى الدرس والمطالعة فانطلق لسانك فى اللغة الألمانية ثم تمت العشرة والتآلف · فتناجى القلبان وتجاوب الجسدان

وكنت لفرط حيائك وجهلك أصول حياة المجتمع ، وعيّك في التعبير بصراحة عما يجيش فى صدرك ويختلج به وجدانك ، عمدت إلى صفحات هذه المجلدات ، تملأ سطورها فى تصوير الوقائع اليومية والأحاديث المتبادلة ، لا كما وقعت ، بل كما كنت ترغب أو تشتهى أن تقع ، وقد لعب خيالك الغض دوراً أدبياً بارعاً ، فأفرغت مذكراتك فى بيان من الفن والجمال . والأظرف من كل هذا أنك ما برحت سادراً فى أوهامك تحاول نفخ حياة فى تلك الأيام تحياها واقعية مجسمة كما هى حالك الليلة فى هذا المسرح المضاء بمصابيح ملونة وهذه الصورة والمائدة والمدامة والخف

صوّب نحوى نظرة مشدوه وقال ثم ماذا؟

قلت حنان من عانس تكبرك سنا يماثل حنان أمك وقد حرمته منذ طفولتك ، وتدليل عوّض عليك بعض ما فاتك من تدليل المرحومة والدتك وهوّن عليك بعض ما تحملته من قسوة زوجة أبيك ، ثم يجب أن لا تنسى أن الطبيعة البشرية تصحح مواقفها وتستكمل نقصها بذاتها ، أنظر إلى نحافة جسمك وضخامة صاحبتك ، وإلى قصر قامتك ومدادة قامتها وإلى سواد

فاحم عجيب فى عينى فتاة شقراء من قلب أوربا وخضرة عجيبة فى عينيك أنت البدوى من صميم الصحراء

قال ماذا تعنى بخضرة فى عينى وسواد فى عينيها ؟

قلت لا يسامحنى الله إذا كنت أسأت الظن بكما ولكنى أعتقد أنكما كنتما متجاذبين بحكم من أسرار الطبيعة ، متجاوبين تلبيان دعوة المجهول

قال وقد أربدَّ وجهه واكفهر ، أن فى استنتاجك تعريضا بمخلوق هو أقدس الناس عندى وأطهرهم

قلت كلنا أبناء أمهاتنا بلا ريب نقدس الأمومة ونباركها ، ولكن ألا تذكر قول السيد الجليلى « لا يثمر الشوك عنبا ولا العوسج تينا » .

هزَّ رأسه هزاً وئيدا متواصلا وكانت الخمرة قد أَدارت رأَسينا وخدرت أَعصابنا فكففنا عن التفلسف وأَخذنا نهذى شأن كل مخمور

ثلاثة أعوام طوال مرت على ذلك الاجتماع ، وكان إذا طالعنى مصادفة وجه صاحبى ذاك ، كان يبادرنى بتحية غريبة

صارت لازمة فيقول « العيون السود والشعر الذهب » ويتبعها « الشوك يثمر الشوك والعوسج الحسك » وكنت اجيبه عن تحيته بهزة من الراس تدل على التأمين والاقتناع، فكان يضحك ضحكة تنمّ عن السخرية والألم ، ويمضى فى سبيله دون أن يدعونى إلى زيارته أو مجالسته

لقد هجر صاحبي صومعته فطرق مع عشرات الطارقين أمثاله السبل الأخرى سعيا للوصول إلى ما وصـــل إليه أقرانه من ابناء الجيل من الدروب الهينة واتخذ دارة أنيقة فى الضاحية ، وسيارة فخمة ينقل إليها الزائرات والزائرين وبدت عليه نعم الثراء الهابط هبوطا ، وصار على ما قيل لى لا يتحرج بأقوال الناس ويعدها هراء وترهات ، وانى لمستهتر بالأوضاع والعرف منكر للقيم كلها ، حاقد على المرأة يرميها بكل حجر، انى له ان يتحرج أَو يخجل أو يستحى ؟ وكنت أرغب فى قرارة نفسى أن أراه

وفى ذات ليلة من ليالى الربيع الباسم ، صفت سماؤها وتلألأت نجومها. ورق هواؤها، وتجلى روحها اللدنى يرفرف فوق كل ما فى الوجود يهدهد الروح ويوقظ مشاعرها ، فى تلك

الليلة البهيجة بالربيع الطلق ، زارنى صاحبى ذاك فى بيتى يحمل لى طاقة جميلة من الأزهار

سررت بزيارة هذا الصاحب الغريب الأطوار سرورى بطاقة أزهاره الجميلة وقد أخذت أصففها فى الزهريات . وإذا به يحذرنى من الأشواك

قلت أداعبه « الفضل للورد كل الفضل فى شوكه » ثم ألتفت أسأله ألا قل لى من هى السيدة المحترمة التى ردتك بهذه الطاقة الجميلة وصفقت الباب فى وجهك ؟

فقهقه من الضحك وقال هى زوجتى الحبيبة

قلت زوجتك ؟ هل تزوجت وأنت الذى رميت كل امرأة بكل حجر؟

قال نعم لقد رميت كل امرأة بكل حجر لأنى بتّ أومن اننا نعرف أمهاتنا ونقدسهن كل التقديس ، ولكنى ما رجمت فتاة العصر عفوا عن حنق أوحقد . وما نقمت عليها خروجها على العرف والتقاليد ، بل رثيت لحالها وأشفقت عليها لأألب كافة عوامل الشقاء الاجتماعى عليها .

قلت ، قل لى بربك هل تزوجت حقيقة ؟ لأنى لا أزال

أكذب سمعى

قال أجل تزوجت وحم القضاء وانتقلت من مجتمعكم الزائف وصداقتكم المموهة بذوب الصداقة الذهبى، إلى أحضان زوجتى وقد جئت الليلة لأقص عليك قصة زواجى لكى تنقذنى مثلما أَنقذتنى من ورطة الفتاة الشقراء

قلت إن الاقتراب من المرأة يدنينا حتما من المشكلات ويعرضنا لكل ورطة

صرخ فى وجهى ولوّح بيده يدعونى إلى الكف عن الأسئلة الاعتراضية والتفلسف لأنه يضيق بهـا وقال دعنى أشاطرك مسرات نفسى كما جرعتك بعض أقداح من خمرة شقائى فيما سلف

قلت ها أنا مصغ

أشعل لفافة واستراح فى مقعده الوثير يرشف القهوة وقال: منذ نبهتنى إلى حقيقة موقفى من تلك الفتاة البلهاء صرت أنتبه إلى كل أَمر قبل الاقدام على البت فيه، أقدر له التقدير الدقيق لأصل إلى النتيجة المعقولة

قلت حسناً تفعل . فقال

قدرت أولا أنى سأْبقى مدفونا بين جدران الجامعة أكتفى

بمرتبى وما يتبعه من علاوات وترقيات ودروس خصوصية وبذلك أبقى على طرف هامش الحياة التى يحياها الكادّ المجتهد مثلى غارقا بين الكتب والدفاتر .

قدرت ثانياً أنى إذا أقدمت على استلاب السلابين أموالهم من السبيل الأقرب والأسهل مستعينا بالصداقة على تمهيد السبيل لتعريف الناس بعضهم لبعض لا أكون أبتعد كثيراً عن روح العصر وبذلك أنبذ الحياة على هامش الحياة وأندغم بصميمها

وقدرت ثالثاً : أَن الخبر إذا شاع وانتشر فانه لا يتجاوز الآحاد ولن يبلغ العشرات وبذلك أنجو من حياة البؤس

وقدرت أيضاً أن الناس قبل أن ترتفع أنظارهم إلى مثلى سينظرون إلى السيارة التى أركبها ، وإلى البناية التى أملكها ، والى الرصيد المتجمد الذى سيتسابقون فى تقديره وفى معرفة المصرف المودع فيه، وقد اقتنيت وتملكت وادخرت،فعلت كل هذا قبل بيع الدارة وتسرب روادها الأغبياء وشراء سواها فى ضاحية الزيتون لأقبل على الزواج . وقد نجحت نجاحا منقطع النظير فى إخراس ألسنة الناس وإطباق أشداقهم، تارة بالصدقات والاحسانات، وتارة بشراء ضمائر أصحاب الألسنة

المتنقلة بين الأندية ، وبدس عشرات الملاليم بأيدى عشرات الشحاذين ، وهكذا كانت كل المقدمات الصحيحة تصل بى إلى ما كنت أتوقع من نتائج طيبة . ولم أخب إلا فى تقدير واحد اختلفت فيه معاييرى واضطربت موازينى، كأن القدر الضاحك كان يتربص بى ليضحك من تقديراتى ومن مقدماتى ونتائجى. فى هذه المرة ضحك القدر منى ملء شدقيه ، وقد ضحكت معه ملء رئتى ولكن الغريب فى ذلك أنى لا أدرى إذا كان اشتراكى فى الضحك معه هو للفرح بالحياة أو للسخرية منها

قلت إذن حمَّ القضاء وتزوجت نخبت

قال دعنى أقص عليك أولا كيف ضحك القدر منى ، قدرت أن الزواج من فتاة ريفية أو قروية إن لم يكن فيه كل الخير. وبعض من السعادة فإن فيه على الأقل البعد البعيد عن بواعث الشر ومواطن الشقاء . وقدرت أن سذاجة الذهن وبساطة التفكير حتى بلادة الفهم إذا وجدت فى الفتاة القروية أو الريفية، هى بالقياس أفضل من إدعاءات أنصاف المتعلمات من المدنيات، وغرور الجامعيات المتفيهقات، وحماقات المعلمات المدرسات ، وتحذلق الفتيات العصريات ، على هذا الأساس

من القياس النسبى بنيت قواعدى ، وعلى هذه القواعدالوطيدة شيدت بنائى العالى الذرى

أخذت افترص الفرص للذهاب الى الريف والتقرب الى أهله والتعرف على ناسه . وتعمدت الصدوف عن الصعيد موطن أهلى وعشيرتى ، لا هربا مما تدخره دوره من الملاحة رالخلق ، بل لأتجنب روايات وأخبارا لا تموت فى الصعيد

وحدث ذات مرة وأنا فى مديرية الغربية ، أن رأيت فتاة نصف حضرية ونصف قروية خارجة من متجر ما كدت ألمحها وأتبين وجهها الحلو، حتى شعرت بانجذاب نحوها، وبصبوة اليها فرحت أتتبع خطاها ، أتعقبها ببصرى ، أقيس قامتها المتوسطة الطول ، وخصرها الدقيق ، وردفها العبل بقياس من الاختبار المضبوط . ولم أستطع رؤية ساقها وتبين تناسقه من إنسدال فستانها حتى الكاحل ، وبرغم أنى كنت شارد اللب ، لم أكن أغفل عنها طرفة عين وهى تمشى الهوينا حتى بلغت أطراف المدينة . وهناك راحت تتغلغل فى قرية صغيرة ليس فيها من بيوت مبنية بالحجر والآجر سوى بيت من طابقين

لا يعقل أن تقطن تلك الفتاة المهندمة فى بيت حيطانه من

طين مشبك بأعواد القصب، وسقفه المنخفض تعلوه أكداس القش ، يشترك الانسان والحيوان والدواجن فى الأيواء اليه

عدت كالملهوف العجلان لا أدرى إلى أين ولا بمن ألوذ أو أستعين ولا من ألجأ اليه

كبُر على أن أسأل عمدة القرية عن فتاة لم أتبين ملامح وجهها مخافة أن يرميني بما أنا منه براء ، ولكن القلق الذى ساورنى والهلع من فوات الفرصة وضياع الأمل والى ما شاكل ذلك من اضطرابات لا معنى لها ، جعلتنى أهدأ هدأة المستسلم . ورحت إلى مشرب ألتمس فيه وسيلة للهروب من إلحاح النفس .

ثلاثة أنهار طوال متتابعات من مطلع الشمس الى غروبها كنت أرقب فيها مداخل القرية ومخارجها صوب المدينة . أترصد سوانح الفرص الهادية الى سواء السبيل . وأصارحك القول يا صاحبى . أنى كنت لا أدرى ما هى الفرص التى كنت أترقبها ولا ما هى الوسيلة الى بلوغ الارب ، لأنى استسلمت للقدر الضاحك وقد ضحكت كثيرا من نفسى

وفى ضحى اليوم الرابع بينما كنت أتمشى قرب مدخل القرية

لمحت فتاتى تخطو خطواتها المتئدة المتزنة فى الدرب العمومى الموصل الى قلب المدينة فرجف قلبى

انه ليخجلني ياصاحبي أن أصور موقفى فى تلك اللحظة لأنك ستضحك مني كما ضحكت من نفسى . رأيتها فاندفعت صوبها أو توهمت أنى كنت مندفعاً ، فلما اقتربت منها لأقول لها ما أريد أحسست بجفاف فى حلقى ، واستعار فى وجهى ، وعقلة فى لسانى ، ورأيتها تصوب الى نظرة من أجفانها الفاترة ضاعفت ربكتى فوقفت. وكأنى بها شعرت بما بى من إضطراب،فأرادت إنقاذى من مناسم حياتى وإدخال الطمأنينة على نفسى باظهار ستعدادها لسماع ما أريد أن أقول

فهمت منى بعد جهد أَنى أرتجى منها معرفة اسم والدها لأمر يهمنا. لبت رغبتى فى هدوء وبصوت خفيض حلو الرنين ، عيّنت لى مكان وزمان التقائى بوالدها ومضت فى طريقها لا تلو عنقا ولا تتلفت .

وقفت برهــــة فى مكانى كالمسمر ، ولم يكن يقلقنى آنذاك قبول والدهـا مصاهرتى أو رفضها ، بل رحت أفكر وأنا أمشى الهوينا مطرقا ، فى الأعوام الطوال التى قضيتها فى

أوربالا يصدنى عن مجابهة أَية فتاة بجرأة تبلغ القحة ، وبطلب كريم منها أساوم فيه مساومة اليهودى الشحيح ، ولا عن صفاقة بالغة حدود المعرة والدناءة فى اللباغة والمراودة وقلما اتخذت من الدارة التى افتتحتها فى الضاحية لتكون ملتقى لطلاب الشهوة، بل قفزت إلى ذهنى عبارة كنت قرأتها عن الحياة الزوجية أنها « شيء رصين » وارتسمت أمامى صورة مقدسة سرة .

أجل أنها شيء رصين . فموقف الفتاة الرصين ، وموقفى المضطرب الخجول ، هما على ما يبدو لى ، اللذان محوا من ذهنى كل أثر وذكرى من مواقف نزعات الشباب ونزغات الشيطان وأشعرتانى بشرف النفس، وكرامة الرجل الحريص على طهارة المرأة ونقاء عرضها فى موقف الزواج

غابت الفتاة عن ناظرى ، ورحت أمشى على غير هدى ، فإذا بى أجدنى واقفا عند باب الفندق وقد انتصف النهار ، فالتفت أقيس المسافة الطويلة التى قطعتها ماشياً من الضاحية حتى مدخل المدينة . فى هذه اللحظة تذكرت مكان وزمان الاجتماع الموعود مع أبيها الذى سيكون قبيل غروب الشمس فى اليوم التالى .

صعدت إلى غرفتى فى الفندق وما كدت أستلقى حتى رحت فى رقاد عميق عوض ما فاتنى من ساعات طوال قطعتها فى الليالي السوابق فى الأرق والبلبال

طفت المدينة طولا وعرضا أستخبر من أعرف من أهلها من سيكون حمى . فوقفت منهم على شبه توافق فى الحكم فى شريف ملكات الرجل ومحمود شمائله ، ونقاء صحيفته يوم كان من المتقدمين بين موظفى المديرية ، أما الآن وهو فى سن التقاعد فقد صدف عن الناس ، وتباعد عن المجتمع ، مكتفيا بحياة هادئة مع زوجته وابنته الوحيدة ، فى بيت يملكه فى ضيعة قريبة من مركز المدينة ، وبضعة أفدنة من الأرض الطيبة يستغلها أحسن استغلال وأتقنه لقربها من المدينة . وقد اختلف الناس فى رواياتهم عن ابنته الوحيـــدة ، فمن قائل أنها بكر عانس رغم ملاحتها ، ومنهم من شهد بأنها ردت وما برحت ترد طلابها ، ومنهم من قال بالتواتر أنها مطلقة أو أرملة ، ولكن ما من واحد من هؤلاء يعرف اسم مطلقهـــا أو المرحوم زوجها واستطرد يقول

اكتفيت ياصاحبى بهذا النزر اليسير من الأقوال المتضاربة

وعدت أسأل نفسى متى كانت أخبار الناس سليمة من التحريف خالصة من التزيد والإضافات ؟ ومتى كان رواة الأخبار غير آفات سامة ؟ وفى لحظة واحدة محوت من ذهنى جميع ما كنت عرفته بالخبرة والتجربة والدرس والقراءة . وقد أنكرت كل ما كنت أدعيه من فلسفة وآراء ذاتية فى حياة المرأة. لقد محوت كل ذلك من لوحة ذهنى وتنكرت له استجابة لنداء داخلى مجهول يدعونى بإلحاح إلى ربط حياتى بحياة تلك الفتاة التى لم أرها إلا مرتين رؤية خاطفة مبرقعة بغشاء من الخجل والرهبة والوجل وعزمت على الاكتفاء بما سيقول والدها فى ابنته ، وعلى الاقتناع بما سوف أسمعه منها مستعينا بفراستى وحدسى وشعورى وإيحاء قلبى .

* * *

فى المكان والزمان لقيت والدها فى انتظارى . وهو شيخ أنيس المحيا، طلق بشوش، ما كدت أذكر له اسمى ولقب عائلتى حتى مد إلى يدا بادية الحرارة وقد شد على يدى وهو يترحم على والدى ويذكر مكانة أهلى وعلو قدرهم وبعد صيتهم ، وقد رحب بى وأهل وقال أنه على استعداد للاستماع إلى وقضاء

حاجتى وتلبية طلبى .

شكرت الشيخ الودود على ترحيبه بى والاشادة بأهلى وعشيرتى . ووقفت حيران هل أفاتحه بأمرى وقد وطدت العزم عليه . وعقدت النية على تحقيقه ، أو أنتحل حكاية ألفقها للتخلص منه مخافة أن يرمينى أنا العربى البدوى بالخروج على عادات قومى وتقاليد عشيرتى بطلبى يد ابنته غير العربية

لم يطل ترنحى بين الأمرين ، ولكنى ما طفقت أتكلم حتى تعثرت أفكارى وأخذت أتهافت فى كلامى وأتلعثم ، ولكن بشاشة الشيخ ، وسريرته الطيبة الطافية على محياه البسام ، ووعده إياى بقضاء حاجتى دفعتنى لأن أقول بصوت خفيض

ظننت عندما رأيت حضرة الآنسة ابنتكم فى طريقها إلى البيت أنها فلاحة ابنة فلاح من صميم الريف ، لا ابنة موظف من كبار الموظفين .

لم يدعنى أمضى فى بيانى بل قاطعنى بإشارة وهو يقهقه وقال: صحيح يا ولدى أن ابنتى مثلى فلاحة أصيلة ومتمدينة دخيلة ، ثم أردف وهو يبتسم كالعاتب ، كل مصرى يا ولدى فلاح وابن فلاح ، وأن موارد رزقنا مهما تنوعت وتباينت

لا تنتزعنا من الأرض ولا تقصينا عنها، لا لأنها أرض أجدادنا وآبائنا الأقربين، بل لأنها رمز خلودنا وبقائنا وعنوان مجدنا وفخارنا أليس كذلك؟ ثم أردف ألا بربك قل لى يا ولدى مَن منا الوزير الخطير أو الموظف القدير الذى يكون بعيداً عن الأرض غير لاصق بها ؟ لا تلتفت يا ولدى إلى الدخيل على مصر وأهلها فهو الوحيد من مستوطنيها البعيد حقا عن الفلاح وحياة الفلاح وعن طيبة قلب الفلاح وصفاء سريرته ، وإذا رأيت رجلا غريبا عن مصر لصيقا بأرضها فاعلم أنها اقلمته وطوته فجاء كأنه من تراب وروح أجدادنا وروحهم . ما أكثر الأمثلة يا ولدى على قدرة تربة مصر على هضم كل وافد عليها . فالسعيد السعيد فيما أعتقد هو من يعود إليها يعطيها من عرقه وجهده فتعطيه من خيراتها وقلبها

على هذا الأساس أخذت أدخر أثناء اشتغالى فى دوائر الحكومة ما تيسر لى ادخاره من المال أشترى به سهما فى أرض أضمه إلى قراريط أملكها ، وبذلك جمعت بضعة أفدنة . فلما بلغت سن التقاعد عدت فلاحا إلى أرض آبائى وأجدادى أنفض عن اخلاقى ماعلق بها من غبار الوظائف وأطهرها من

الجلسة بما عرفت من خلائقها التى ذكرها والدها، وسأتزود بمعرفة مزاياها فى الجلسة الثانية وقد تواعدنا على أن يكون انعقادها بدارها فى عشية اليوم التالى

توهمت لو أنى رحت ماشيا إلى بيت خطيبتى لكنت رأيتنى أقطع الطريق فى خطوات عسكرية متزنة فى عرض رسمى، مرفوع الرأس، بارز الصدر، ألوح بذراعى رفعا وخفضا، أبصم الأرض بصما بوطأة توقيعية حادة، أرسم صورة واقعية «للماشى على الأرض مرحا» قلب فرح ضاحك يدفعه المرح إلى الخيلاء المتواضع. والبال المطمئن، والامل المحقق. هكذا كنت أمشى فى الطريق

عند مدخل الضيعة لقيت حمى فى انتظارى، وقد تحقق ما خمنت من أن المنزل الوحيد المبنى بالحجر لا بالطين من طابقين هو بيت خطيبتى لا سواه

كل ما فى الدار متواضع، ولكن فى تواضعه تنسيق ونظافة بل هو نموذج لما يجب أن تكون عليه منازل القرى

استمعت للشيخ وقد استقبلنى فى ساحة الدار يفرجنى على حظيرة الدواجن وتقسيم أقفاصها، ويصف طريقة ابنته فى

تربيتها. رضيت بالاستمهال ساعة ذاك، وكنت أتمنى لو أثب إلى الدار وثبا، ولكنى رحت أسأله عن قنّ الدجاج، وأوكار الأرانب، وزريبة الجاموسة والنعاج، وبرج الحمام، وخلايا النحل فى رصات متباعدات الأوضاع. وقد جال فى خاطرى فى تلك اللحظة أن أجعل ساحة الدواجن فى دارتى فى ترتيب فنى يناسب مزاج خطيبتى

قلت: هل بعت دارتك الأولى تلك التى كانت لك منجما من الذهب؟

قال: أجل لقد بعتها ولكن بربك لا تسألنى عن ماض مضى بحوادثه وآثاره، بل دعنى أفتح لك قلبى وأتخفف من بعض ما يثقل صدرى من فرح موفور وسرور زائد، واستطرد يقول:

تابعت خطى حمى فى صعوده الدرج وقد تقدمنى إلى غرفة ليست متسعة تجلل نوافذها ستائر من الحرير المشجر، ومقاعد مكسوة من الحرير نفسه، وسجادة من صنع بلاد العجم، وثريا تنعكس أضواء مصابيحها على ثلاث صور شمسية فى إطارات مذهبة أشار حمى إلى واحدة منها هى صورته فى شبابه

وعلى الصورتين الأخريين لزوجته وابنته الوحيدة التي لم يعش من أولاده سواها

أطريت الرجل ما وسعني الاطراء، وادعيت أن لا شيء من ملامحه ونضارة وجهه تغير سوى ابيضاض شعره وخفة شاربه وقد كان غزيراً، فأجاب هذا إطراء تعود الشباب توجيهه إلى من يطمئنون إلى المغالطة في العمر وهي مغالطة مستحبة. غير أن الحقيقة التي لا مرية فيها أني تجاوزت خمسة أعوام من سن التقاعد

قلت لا عبرة في عدد الأعوام لأنها تقدير زمني ولأن الشباب يقاس بشباب القلب ودوام الصحة وأنت بحمد الله موفور العافية

في هذه اللحظة دخلت سيدة بدينة مترهلة متشحة بوشاح أسود يطفح السرور من وجهها تؤهل بي وترحب فعرفت أنها حماتي. ولم تكد تجلس حتى دخلت الفتاة تلك التي رأيتها في الطريق ترتدي الثوب الذي رأيتها ترتديه أول مرة وقد وقفت تبجيلا لها فحيتني باحناء رأسها وقد عرفها بي والدها مضيفا اللقب الجامعي الذي أحمله. وقال ها هي ذي ابنتي «صفاء» فهشت لي وبشت ومدت إلى يداً ناعمة الملمس في وضع أوشك بأن

يجرأني على تقبيلها

أخذنا نتحدث وما لبثت أحاديثنا أن تشاجنت وتنوعت ولكن الفتاة لم تشترك فيها وذلك ما غاظني وقد كنت تواقا إلى سماع كلامها ، فقلت لها بنبرة ندتّ مني أحسست ببعدها عن اللياقة وأدب الحديث أدعوها إلى الاشتراك معنا ، فقالت في هدوء يسرني سماع حديث يفيدني أكثر من سروري بابراز شخصيتي وتوكيدها بالكلام ، قالت عبارتها ببساطة تقرب من الوداعة وبلهجة كأنها كانت من همس الطبيعة وكأني كنت أستلهمها ، وقامت فدعتنا إلى تناول ما تيسر من خير القرية على قلته وتقدمتنا فتبعناها ، ولعلي كنت أسبقهم الى غرفة تتوسطها مائدة مليئه بأطباق من الجبن والزبد والقشدة والعسل والرقاق فاحتسيت فنجانا من الشاى معطراً وأكلت حتى شبعت ، وقد اختلط على معرفة ما إذا كانت أية مائدة من موائدالمدينة أشهى وألذمن هذه المائدة الدسمةاللذيذة المنبعثة من قلب الريف

قال حمى وقد عدنا من غرفة المائدة، لقد احتججت بالأمس على استعمالى كلمة « الظن » بدلا من كلمة « الاعتقاد » فهل لك الآن أَن تقول ما ظنك أَنت وما اعتقادك ؟

أجبت وأنا مطرق أن إيمانى قوى لا يتزعزع لأنه من وحى قلبى واستشعار وجدانى ، وبودى أن أسمع كلمة من الآنسة فى إيمانها بى ، وهو شأنها الخاص والتفت اليها ، فى هذه اللحظة فقط التقت عينى بعينيها فإذا بوجهها يصطبغ بلون الورد ، ولمحت سحابة شفافة من البشر تكسو صفحة وجهها فجعلته أكثر وضاءة وأبهج رقة وجلالا . وسمعتها تقول إن سعادتى رهينة برضى والدى العزيزين

سمعت أو توهمت أنى سمعت زغاريد الفرح تصدح كأنها آتية من كل صوب يشترك فى تغريدها أبى وأمى وإخوتى وأهلى وصحبى ومعارفى ! ولم أنتبه إلى كلمة التبريك تفيض من قلب حمى وحماتى ، بل قمت فأخرجت من جيبى علبة مكسوة بالمخمل الأزرق فيها سوار من ذهب محلى بالماس المكشوف سورت به معصم خطيبتى وختمتها خاتما من الذهب ثم كلفتها أن تضع لى خاتم الخطبة فى بنصرى ليكون عربون تقييدها قلبى بيدها ، ولما فعلت انحنت على يدى تقبلها فقبلتها فى جبينها وسمعتها تتمتم وكأنها تتعهد بأن تكون وفية لزوجها ساهرة على راحته وسعادته ، أمينة على ماله وبيته ، ورأيت أبويها الشيخين يبكيان

فرحت أَسكب دموع فرحى على كفيهما

في تلك الليلة السعيدة ضقت ذرعا بمدينة طنطا وبمديرية الغربية كلها ولم أَعد أَطيق البقاء فيها ليلة أُخرى بين جدران حجرة ضيقه فى فندق المدينة الوحيد

ركبت سيارتى ورحت أَقودها بسرعة تتناسب مع انفعالات نفسى أَو ومضات شعورى ، كنت أُسرع كأَنى أَتممت عملا كنت مكلفا بإِنجازه

كنت أجدّ وأمعن فى السرعة بغية الوصول إلى العاصمة التى تعج فيها الحياة ، ويصطخب الوجود والحركة ، والتى تشترك كل طبقات قطانها فى اجتلاء الراحة بعد العمل ، والسرور بعد الكسب ، والفرح بعد العناء . كنت أسرع بغية الهروب من جمود ما أقتله للغريب فى مديريات ومراكز مصر وللوصول الى أَصحابى ألقاهم فى ندواتهم ومجالسهم أشركهم معى فى فرحة نفسى

وكنت أبطىء فى السير كأَنى أجارى السلحفاة بغية الانسياق فى انسراحة لينّة هادئة أَستعيد فى ذهنى بعض ماسمعت من أَجوبة «فلاحتى» ذات الذهن الصافى وأَستعرض

فى مخيلتى بعض ما استماحت من حلاوة «صفائى»

..... وبلغت المدينة ورحت أجوس مباءات الصحاب فإذا بها كلها خالية منهم أفتش عنهم فى كل مكان وفى كل حى فلا أجدهم لقد صدمنى تغيب أصحابى فأحسست بالضيق والانقباض ولكن خاطرة من خواطرى المفرحة محت بلحظة كل ما أَلم بى وقلت علامَ أعجب لأحكام القدر فى تصرفاته ، ولم لا أفلسفها فأجعلها مصادفة ؟ ولكن . . . أمن المصادفة أَن لا أَجد رفيقا واحدا أَو صاحبا أشركه معى فى فرحى فى تلك الليلة السعيدة ؟

يممت حانة يقصدها بعض الرفاق فى أَيام العسر الأخيرة من أَشهر الموظفين ، فتلقانى خدمها بالترحيب أَما رفاقى فلم أَجد منهم أحداً

عنّ لى أَن أَتخذ من خدم الحانة شبه الخالية من روادها رفاقاً لساعة واحدة . وأَن أدخل الفرح على نفوسهم والسرور على قلوبهم نكاية بالقدر الضاحك مما قدرت ،وسخرية بالمصادفات المعاكسة غير المواتية. رغبت إلى صاحب الحانه وهو يونانى قديم أَن يشترك وخدم الحانة معى فى شرب كأس أقدمها اليهم ، ضحك اليونانى ورفع سبابته فى وجهى وأَخذ يحرك يده يمينا وشمالا

ويقول لا . . . لا أَبداً . أَتريدنى أَن أبيعك الخمر وأسكر منه؟ ماذا جنيت يا سيدى حتى تحمّلنى شر خطايا الخمارين؟ ورفض بإباء قبول دعوتى

لم أضحك من عقيدة الخمار لأنى تذكرت منظراً ما زالت صورته مطبوعة فى ذهنى ماثلة أمامى : قنديل من الفضة ، مضاء بالزيت. أمام صورة العذراء مريم ، فى غرفة سيدة تبيع المتعة لكل طالب . فإيمان تلك المرأة المومس بالغفران يماثل إيمان ذلك الخمار باقتراف المعصية لو قبل دعوتى

انصرفت من الحانة رضىَّ النفس ، قانعا بأن المصادفات هى التى صيرها الانسان إلى حال دعاه «القدر» وأن عنعنات العقل هى التى ألبسته حلة مزركشة ونفخت فيه طبيعة الضحك مما يقدره الانسان ، وتمادى العقل فى جهالته فجعل لكل شىء قدرا وشبه قوة القدَر بقوة القادر

عدت إلى البيت وقبل أن أتوسد فراشى ، كنت مقتنعا بأن فرح النفس هو منها واليها ، ونمت ملء جفونى

ليست العجلة يا صاحبى من طبعى ، بل التأنى والتريث هما الخلتان الغالبتان على ، ولأنى (إن عن حرص أو عن تردد)

لا أَبتّ فى أَمر من الأمور إما حرصا وأما ترددا إلا بعد تقليبه على عدة وجوه، أَما فى ذلك الأسبوع فقد خرجت على طبعي ونبذته، وتخلقت أخلاق الحاكم المطلق، ينفّذ ما يريد وقد تكون إرادته مجرد بدوة أو خاطرة. أما إِرادتى فلم تكن سوى العمل على إرضاء خطيبتى وإسعادها

لقد بدلت دارتى فى ضاحية الزيتون من حال الى آخر وطهرتها تطهيراً، وما كاد النقاشون والدهانون يتمون عملهم حتى ذهبت مع المهندس الاخصائى فى تنسيق أثاث البيت ننتقى من الرياش أَجملها، ومن أدوات المنزل أَمتنها. وزودتها بما يلائم الذوق العصرى من المخترعات الحديثة التى تعين على الراحة والرفاهيه، ثم أَعفيت خادمى الخلاسى الأمين من خدمتى، واستبدلت به زنجيا فاحم البشرة حاد النظرة لا يعرفنى واستأجرت عاملا للحديقة رسم له المهندس كيفية تنسيقها وزرع الأزهار وغرس الأشجار، لقد بدلت كل شئ من معالم الدارة وعلقت على بابها لافتة من النحاس عليها اسمى الدكتور بجامعة فؤاد الأول، حتى السيارة استبدلتها سواها شكلا ولونا وبذلك أكون محوت كل أثر من ماضى وحتى لا يكون أى تشابه بين

الدارة الاولى أو المنجم الذهبي كما أسميتها أنت لاجعلها منجما للحياة الزوجية المقدسة

وقد بدا لى ، بدافع من دوافع النفس ، أن أتجنب أصحابى وأن أبتعد عنهم ، وتعمدت الا اخاطب واحداً منهم بالتلفون إلا إذا دعيت الضرورة إلى ذلك . وقد لمت نفسى على الفرح المجنون الذى اخرجنى عن طورى ليلة عدت فيها من طنطا وقد تمت خطبتى ، لقد لمتها وعنفتها على اندفاعها فى فرح يجب أن يكون لها وحدها لا تشرك فيه أحداً من الناس

بعد ايام تجاوزت العشرين ، ذهبت إلى طنطا دون إشعار والد خطيبتى بمقدمى ، وبعيد ساعة الغروب أو قبيل العشاء وصلت إلى الدار فى الضيعة السعيدة فكانت مفاجأة لطيفة لحمى وحماتى وسارة لخطيبتى التى بدت الراحة على وجهها . وقد استقبلونى بترحاب ما لبث أن توشى بالعتاب على انقطاع دام حوالى ثلاثة أسابيع ، ثم باللوم على سكوتى عن السؤال عنهم أو اطلاعهم على السار من اخبارى

انتحلت أعذارا بادية الهوان لأنى تعمدت إخفاء مابذلت

من جهد من سبيل اصلاح دارتى وتبديل مظهرها . وكان القصد من الكتمان إتمام عناصر المفاجأة التى اعددتها لخطيبتى ذات النظرات الفاحصة المستفسرة الباسمة

كانت زيارتى مفاجأة سارة لنا جميعا ، أما بالنسبة لى فقد رأيت خطيبتى لأول مرة تلبس ثوبا هو الذى كانت تصبو نفسى إلى رؤيتها ترتديه، تعصب رأسها بمنديل أحمر محلى بزهرات مفتحة من المخمل بيضاء ، كانت أشبه باكليل من الياسمين حول رأسها ، وقد تجلت صباحة وجهها على طبيعته من البساطة الحلوة ، فلم أستطع إلا إبداء إعجابى بمنديلها وزهراته ، والثناء على ذوقها السليم فى ذاك الهندام البسيط . ثم عطفت على حمى ، وقد أخذت أدعوه عمى . أحمد جلبابه الأبيض الفضفاض ذو الاكمام الواسعة والصدر المفتوح ، فقال ألم أقل لك ياولدى أن المصرى فلاح بفطرته ، وأن الفطرة هى التى هدته إلى اختيار لباسه المناسب لحالات الجو

لعمى براعة فى الحديث وفى الاستدراج الى الكلام ، فما كدنا ننتهى من تناول الطعام الشهى الذى قدم لنا ، واحتساء الشاى المعطر ، حتى سألنى عن الحالة العامة فى القاهرة

وعن المصير المظلم الذى يصير الشعب إليه

قلت لحيطان القاهرة آذان تسمع شكايات الناس وتزمرهم وتنقل غمغماتهم مجسمة إلى القصر مشبعة بالتهويل

قال أيخامرك ريب فى أن رب القصر الغارق فى فسوقه وفجوره يعلم شيئاً من شكايات الشعب ؟ وهل تظنه يعير تزمر الامة أذنا صاغية ؟ استمع إلى دار الاذاعة، وأقرأ ما تخطه أقلام كتاب الصحف ورؤساء تحريرها واصغ إلى قصائد الشعراء وأغانى المغنين تجدها كلها تسبح بحمد جلالة مولانا الملك الصالح ، إنما الذين يتلصصون ويتجسسون ويتتبعون أخبار الامة هم زبانية الملك ورجال حاشيته

قلت : الحرص يا عماه يقضى تجنب الشيطان الرجيم والاستعاذة بالرحمن الرحيم

تقبّض وجه عمى ، وقد شعرت من تململه بأنه يكظم ما جاش به صدره وقال · نحن فى ضيعة بعيدة عن مركز المديرية ، والمديرية بعيدة عن العاصمة ، والعاصمة تعج بمليونين من السكان منهمكين فى الكدح لكسب القوت ، فإن تذمرت حفنة من رجالها فان تذمرهم لا يعدو أن يكون بكاء على منصب تولاه

سواهم ، وغنيمة كانوا يرون أنهم الأحق باغتنامها ، أما إذا تكلمنا نحن هنا فى هذه العزبة المتناهية فى التواضع . فإنما قلوبنا هى التى تتكلم والقلب يا ولدى لا يقول الا الصدق

خجلت من هذا التقريع المستتر فقلت : إن فى العاصمة ألسنه تتكلم لصالح المصلحة غير الخاصة ، وتوجه النشىء توجيها سليما لتكون منه الجيل الجديد

ضحك عمى ضحكة تنز بالألم . وقال يؤسفنى أنى وجدت الموضوع من بابه الواسع وغفلت عن المدرس بالجامعة ، فيحسن إذا أن نقلب هذه الصفحة من الكتاب لنتلو سطورا من فصل آخر من فصوله العديدة

التفت الى خطيبتى فإذا بها مطرقة ، أما حماتى فقد كانت الكلمات تتراقص على شفتيها ، فقلت لها ، أحسب أن حديث السياسة قد لا يرضيك فأجابت على الفور ، كيف لا يرضيني حديث نشترك فيه كل ليلة ونستمع إلى آراء زوار البك وأشارت الى زوجها من موظفين فى الدواوين ومن متقاعدين يقرأون الصحف ويتجادلون، ومن فلاحين يسمعون ما يقال لهم ولا يقرأون

قلت أللفلاحين رأى يعتد به ؟ فأجابت

أن الفطرة السليمة تستنتج الإستنتاج الصحيح

التفت إلى خطيبى فاذا بها ما زالت مطرقة فقلت لها ، هل يوافق رأى الآنسة فى السياسه رأى حضرة البك عمى ؟

فأجابت وهى تبتسم ابتسامه خفيفه ولكنها لم ترفع نظرها الى . لا شأن لى بالسياسة ولا بمحترفيها ولا بالخصومات والاحزاب . انى وامى نكتفى بسماع الجدل الصاخب كل ليلة من خلف هذا الباب

قلت أليس لك رأى خاص فى السياسه ؟

قالت رأيى أن لا يكون للمرأة رأى يتخطى عتبة بيتها

لقيت نفسى لأول مرة فى وسط لا محيد لى فيه من أظهار شخصيتى أو طمسها ، وأن لا منجاة لى إذا تعملت المداورة والالتواء أو ترك الامور إلى مشيئه الله يحولها من حال الى حال كالتى نتعملها فى مجالسنا فى القاهرة خوفا من ألسنه الوشاة وتهربا من العواقب الوخيمه ، ورأيتنى برغمى أندفع فى الكلام عن الملك الفاجر المستهتر المستهين وعن حاشيته والمقربين منه

وكلهم ساقط الخلق يتحكمون فى الناس كما لو كانوا حكاما مطلقين، يرفعون هذا الزعيم إلى مقعد الرياسة ، ويقصون رجال ذلك الحزب عن مقاعد الحكم والنيابة . لا يرفعون ذلك الزعيم إلى سدة الرياسة ولا يبعدون الزعيم الآخر عنها إلا بعد أن يضعوا أرسنة فى عنق هذا وذاك ، مقاويدها فى أيديهم ، يجرونهم من هذا الصوب إلى ذلك ، بغية الابقاء عليهم عبيدا أمناء على خدمة الملك إرضاء للطاغية الفاجر المستهتر المستهين ، أما وزراء الدولة الذين يسرقون الأمة الفقيرة فقد كانوا يقاسمون رجال الحاشية الغنائم والأسلاب ، وهؤلاء يشاركون الملك بها ولذلك أهدروا الكرامة ، وهانت عليهم نفوسهم ، وانكفأوا جميعا يمسحون الأعتاب بذقونهم، ويتمرغون بالأوحال خدمة للغاصب المتربص ، وقد باعوا ضمائرهم لشياطين المال والغوايات ، وأما شيوخ الأمة ونوابها فقد راحوا فى كل ناحية وصوب وفى كل طرف من أطراف المرافق العامة والخاصة ينهبون ما تصل إليه أيديهم الطويلة واطماعهم الخسيسة ، ولم أنس يوم أعلنوا فى دار النيابة تحت قبة البرلمان ، أو أعلنت أغلبيتهم التى كانوا يسمونها

الساحقة الماحقة « تمتهعم برضا جلالة الملك وثقته بهم » غير عابئين بالأمة التى أنابتهم للكلام عنها

قال عمى : لقد أجملت الوصف لما يعرفه كل فرد من أبناء هذه العزبة ولم تزد حرفاً على ما يعرفه كل مصرى سواء كان فى أعالى الصعيد أو فى قلب الريف أو من سكان البنادر والمراكز والمديريات لقد وصفت الحال الواقع وسكت عن الرجعية التى نئن منها ولم تصف الدواء ، ولم تقل ماذا يجب علينا أن نفعل

قلت بلهجة تجمع بين الجد والفكاهة ،لقد وضعت الخطة ، أجل لقد وضعت الخطة وأحكمت تخطيطها ، وقسمت الجبهة إلى جناحين وقلب ، وقد أسندت إلى حضرة البك عمى قيادة الجناح الأيمن ، وقيادة القلب إلى حضرة الآنسة « صفاء » أما أنا قد نفذت أوامر الإيحاءات الوجدانية فأتممت تأثيث بيتى وفرشته بما استطعت من الرياش لأقدمه هدية لحضرة الآنسة « صفاء » العزيزة

قشعت عباراتى تلك السحب التى تلبدت فى جو أول

اجتماع عقدناه وتجلت البشاشة على وجوهنا وعلى وجه عمى بنوع خاص فقال لى :

لقد أحسنت يا ولدى الانتقال بنا من موضوع يؤلمنى إلى آخر هو فرحتى قبل الفرحه الأخيرة

قلت أية فرحة أغلى من فرحة زواج ابنتك الوحيدة ؟

قال فرحتى الكبرى يوم ارتحال آخر جندى من جنود الاحتلال عن وطنى مصر

قلت أقاطع عمى هى تلك فرحتنا العظمى، والتفت أتزود نظرة من خطيبتى القابعة فى مقعدها تتلقط الكلام بالإصغاء والانتباه لقد نفذت الجانب الأول من الخطة الموضوعة الواجب على الرجل المجد فى بناء عش سعادته الزوجية تنفيذها، وتركت لحضرة الآنسة تنفيذ خطتها وهى حرية اختيار ما يلائم ذوقها من الثياب من متاجر القاهرة ، أما العبء غير الثقيل فقد ألقيته على عاتق سعادة البك عمى وهو إحضار المأذون لعقد الزواج ، ألا يرضيك تقسيمى العمل على هذا النحو يا عمى العزيز ؟

قال عمى وقد تحرك فى مقعـــده حركة العازم على التخفف مما سيقول، لقد أحسنت أيضا فتح باب الحديث فى أمر تدارسناه أنا وزوجتى وابنتى، وقد بيتنا العزم على الافضاء إليك بالحقيقة الواقعة، وهى أننى أنا وهذه، وأشار إلى زوجته، لا نملك شيئاً من حطام الدنيا سوى هذا القفطان الذى ألبسه والحلة التى ترتديها، أما الأفدنة العشرة وهـذه الدار المتواضعة والعشرات من الجنيهات المودعة فى بنك مصر فهى كلها ملك خالص حلال لابنتى. وابنتى «صفاء» هذه كفء فى إدارة شئونها بالاتفاق مع زوجها، وأزعم أنها سترضى أن تقيمنى ناظراً على إدارة أطيانها المدة الباقية لى فى الحياة، بشرط أن تبقى لنا نحن الشيخين هذا المأوى نتلمس فى كل ركن فيه وزاوية ذكريات ابنتنا التى نسأل الله أن يجعلهـا سعيدة فى زواجها مسعدة زوجها

قفزت «صفاء» من مقعـدها وارتمت على والدها تشبعه تقبيـلا فى خديه وكفيه وقالت وهى تبـكى «أنا ابنتك التى عرفتها يا أبى وإنى سأعمل أنا وزوجى على إسعاد

أبى وأمى كما أسعدتمانى طول حياتى »

اعترضت طريق خطيبتى فى عودتها إلى مقعدها . وهززت يدها هزّة الاكبار والاعجاب والعهد ، وقدمت إليها ورقات مطويات فيها بيان مفصل لجميع محتويات الدارة غرفة فغرفة ، وأدوات المنزل أداة فأداة ، هى كلها بكامل محتويات البيت ملك لها ولم أستثن سوى كتبى الخاصة ، ثم سلمتها مظروفا فيه أوراق نقدية لنفقتها الخاصة وهممت بالانصراف

إستمهلنى عمى وقال : يظهر أنك محبّ للمفاجآت تحسن تدبيرها وتسرف فى المبادرة بها . والتفت إلى ابنته يسألها ما تلك الأوراق التى فى يدها ، فلما فضّ الغلاف ولقى أوراق النقد قال هذا شأنك مع زوجتك والسخاء عليها ، وردها إلى ابنته ، ولكن ما هذه القوائم ؟ وأخذ يقرأها ثم عاد يتلوها بصوت عال ، أما أنا فكنت أنقل نظرى من خطيبتى إلى أمها وبالعكس وأرى أجنحة الغبطة ترفرف عليهما فترسم ألطف القسمات على وجهيهما ، وقد عبّرت حماتى عنها بدموع انحدرت بانسجام ، كما عبرت عنها خطيبتى بهدوء دلنى على قدرتها على الانطواء على نفسها

شأن أكثر نساء الريف

نهض عمى من مكانه وقال يحاكيني فى لهجتى التى أمزج فيها الفكاهة بالجد ، ما هذه الدكتاتورية يا دكتور ولمَ الاستبداد والتحكم ، لماذا تنفرد بالعمل وحدك وتتركنا نحن فى الفراغ ؟

نظرت حماتى إلى زوجها دهشة من لهجته فى كلامه ، أما أنا فقد توقعت منه المعابثة والمباسطة فإذا به يقول ، من حق أنا وحدى أن أسجل باسم « صفاء » ابنتى الوحيدة كل ما أملك دفعا لقيام بعض الأقارب للمطالبة بنصيبهم من الارث بعد موتى ، أما أنت ياحضرة الدكتور فبأى حق تفرش بيتاً من ست غرف بنفيس الرياش وتزوده « بفريجيدير » وأشياء أخرى لا أعرف كيف ألفظ اسمها ولا الغرض المقصود من إستعمالها وتدعى فوق ذلك أنك تسلمتها منى قطعة فقطعة وأنك المسئول عنها فى حين يمكننى أن أقسم أغلظ الايمان غير حانث أنى ما أنفقت فى ثمنها مليما واحدا ولم أرها إلا وهى فى منزلك؟ ثم خفف من حدته المفتعلة ورقق صوته وقال : لا يادكتور أنت ديكتاتور محب

للاستبداد ، لأنك تعمدت أن تنتزع من قلبي وقلب زوجتي العجوز فرحة إختيار جهاز ابنتنا بنفسنا ، وفرحة إظهار اختباراتنا في انتقائه ، وفرحة إبراز معرفتنا في مثل هذه الأمور وسواها ، وفرحة اختصامنا على نوع السجاد أيكون من العجم أو من أزمير أو مصنوعاً في أسيوط من صوف أنعام مصر بأيدي مصرية . ومئة فرحة من أنواع أخرى ؟

قلت أقاطعه : لقد خففت عنكما أعباء هذه السخرة المرهقة ، وكان من الواجب أن لا أفعل ، ولكني أسرعت في تأثيث البيت لأني أحب السرعة ، لا تنس يا عمي العزيز أن الجنون النوعي يبعث على السرعة . وإني مجنون حقاً بحب خطيبتي التي لا تتكلم إلا إذا دُعيت للكلام ، فإذا كنت تخشى في تماديّ في الجنون وتتمنى لي الشفاء العاجل . فعليك بإحضار المأذون على عجل بدون تمهل

ضحكنا طويلا ونحن في فرح وسرور ، وهممت أستأذن للانصراف ، نظـــر إليّ عمي دهشا وقال تنصرف إلى الفندق ؟

قلت لا ، بل أذهب إلى بيتي

قال بيتك فى القاهرة ؟

قلت أجل وفى عزبة الزيتون فى ضاحية القاهرة

قال وأى قطار ينقلك الآن إلى الزيتون؟

قلت سيارتى هى التى تنقلنى وبعد ساعة أكون فى بيتى

قال أين سيارتك تلك ؟

قلت أودعتها المرأب الكائن عند ميدان الساعة

التفت إلى زوجته وقال أحمد الله كثيراً على أنه لم يحضر بسيارته إلى هنا لأن أهالى القرية كانوا « أكلونا » بعيونهم الحاسدة

وقفت للوداع ، فاقتربت خطيبتى تسألنى متى أعود ، قلت فى مثل هذا اليوم من الأسبوع القادم ، قالت سننتظرك عصر يوم الخميس المقبل ، والتفتت إلى باقة الزهر التى حملتها من القاهرة هدية لها ، فانتزعت منها وردة حمراء مخملية علقتها بعروة سترتى ولم تنبث ببنت شفة

* * *

لم أذهب إلى طنطا فى الميعاد ، بل طرقت باب بيت عمى وكان الوقت قبيل الظهر ، ومن عجب أنى وجدت خطيبتى فى

انتظارى ، وكذلك عمى وحماتى إلا أنهما كانا فى هيئة الطفل الحردان بعكس خطيبتى فقد كانت تبتسم

قلت ما هذا ؟

قالت حماتى أنت السبب

سألت نفسى عن الداعى إلى هذا ، فلم أفز منها إلا بجواب تفسيرى واحد وهو أن خطيبتى استشعرت المفاجأة ، فخمّنت أنى سأحضر قبل الميعاد ، فتهيئت لإفساد المفاجأة وقد نجحت فى إحباطها

وجهتُ إلى خطيبتى نظرة إستفسارية فإذا بها تبتسم ، أما والدها فقد أَخذ بلهجته الخطابية يقول وهو رافع يده اليمنى وناصب سبابته

واحد من أمرين ، إما أنك استسرّيت « صفاء » بأن ستحضر الينا قبل الظهر ، أو أَنها اكتشفت بيداهتها شغفك بالمفاجآت فخمنت فصحّ تخمينها ، وفى كلا الحالين خسرت أنا وزوجتى الرهان وربحته « صفاء » بارك الله لها فيما ربحت

سرحت سرحة ذهنية أسائل نفسى هل هى بديهة فطرة سليمة ، أَو رهافة حسّ ، أو استشعار هو فى المرأَة أكثر

منه فى الرجل ؟ ولم أطل الوقوف عند هذا السؤال بل رحت أمرح فى فرح ، وأتكلم بسرور أسأل بغير كلفة عن طعام الغذاء والأوزة المذبوحة ، وقد سال لعابى وأنا أطلب من حماتى أن تزوّد المائدة بالبصل المخرط يزيد فى الملوخية طعماً ونكهة

فى ذلك اليوم اتفقنا على كل شىء ، لقد حددنا موعد حضور المأذون والشاهدين . واقتصرنا على أن لا يحضر الاحتفال سوانا ، غير أنه شجر بينى وبين عمى شجار لم تقو حماتى التى لا تفارقها الإبتسامة ، على فضّه ولم تحسمه سوى خطيبتى « صفاء »

لم تكن « صفاء » عادلة فى حكمها ولكنى نزلت عليه غاضبا راضيا، ولم تكن حماتى عادلة برغم أنها كانت تساندنى وتؤازرنى وتدعو زوجها وابنتها إلى النزول على إرادتى ، ولم يكن عمى عادلا أيضاً ، لأنه أصرّ على رفض اقتراحى وردّ طلبى وعلى عدم قبول رجائى وقد عزّز إصراره بقسم عظيم ولكنه عاد فنزل مثلى على حكم ابنته ، لقد نزلنا كلنا على

إرادة من هى أَصغرنا طائعين حكمها مذعنين لإرادتها لأنها عزيزة علينا ، وقد حكمت

أَولا : بأن أحدد بنفسى مبلغ الصداق المعجل والمؤجل كما يطيب لى

ثانيا : تعترف هى ووالدها بأَنهما قبضا المبلغين العاجل والآجل مقدماً نقدا وعداً

ثالثا : تقر وتعترف بأَن غرفة مكتبى بكافة ما فيها من كتب وخزانات وأثاث وسواها فى عهدتها وهى مسئولة عنها لأنها ملكى الخاص

وقالت تعقب على الحكم أن ما لديها من المال المدخر فى البنك وما أعطيتها من نقود هما أَكثر بكثير مما يلزم لشراء الملابس التى سوف لا تشتريها إلا بمعرفتى .

* * *

بينما كنت فى طريق عائداً إلى القاهرة كنت أصفّر أو كنت أحاول ذلك ، ولكنى لا أحسن التصفير ، ولا إخراج النفس ، حتى ولا الاقتراب من الأنغام التى كنت أريد أَن أعبر بها عن سرورى ، ولما أَعيتنى شفتاى وقد

كنت أزمّهما بشدة تارة، وأفتحهما برخاوة تارة أخرى، ولما ضقت ذرعاً بأنفاسى تخرج مرة قوية عالية كأنها زمارة الانذار، ومرة خافتة كأنها ريح من منفاخ . ولما مللت هذا النشاز الصارخ ، رحت أغنى بصوتى الصوانى الأصم ، أغنية لا أدرى كيف علقت بذهنى ولا عمن اقتبستها من المغنين ، أمن «أم كلثوم» أم «عبد الوهاب» أم من «فريد الأطرش» ولكنى كنت أغنى وأهيص وأقول :

يا عزيز عينى أنا بدى أروّح بلدى

* * *

أبرقت إلى عمى أطلب منه السماح بتخلفى عن الحضور لأسباب تدعونى إلى البقاء فى القاهرة ، ولم يكن يخطر فى بالى بأن تلك البرقية على ما فيها من بيان واضح لضرورة عدم مغادرة القاهرة فى ذلك الأسبوع، تسبب قلقاً وبلبالا وهواجس لعمى وزوجته وابنتهما، وأبت مروءة عمى الشيخ وأريحيته إلا أن يقف إلى جانبى فى القاهرة

... ولقينى فى فناء الجامعة واقفاً مع زمرة من

الأساتذة الزملاء ، فهرولت مسرعا استقبلته بدهشة وأسأله عن الباعث إلى مجيئه وهل من تركهما فى البيت بخـــير وعافيه ؟

أجاب بهدوء ، ذلك الهدوء الذى لمسته فيه يوم التقينا أول مرة ، وبابتسامة حلوة كالتى طالعنى بها يوم اجتماعنا الأول وقال : إن « صفاء » وأمها بخير إلا أنهما قلقتان هليك من جراء حوادث القاهرة ، لذلك أسرعت بالمجىء للاطمئنان

قلت حسناً فعلت ورحت إلى زملائى أساتذة الجامعة استأذنهم بالانصراف ، ثم إلى حضرة عميد الكلية أفضى اليه رغبتى فى التخلف عن الحضور لوقت قصير وعدت إلى عمى فأجلسته إلى جانبى فى سيارتى ورحنا نطوف شوارع القاهرة التى ما زالت النيران مشتعلة فيها

ولم نستطع اختراق شـارع سليمان باشا ولا الشوارع الأخرى القريبة منه لأن النيران قد امتدت إليها تسابق أيدى السلابين ، وكذلك لم نقو على اجتياز شارع فؤاد الأول ، لأن النار ما برحت تأكل محلات « شيكوريل »

ولا شارع إبراهيم باشا لأن فندق « شبرد » تحول إلى أتون تلذع شواظه كل مقترب منه ، وكنت أهدىء السير أتفادى الاصطدام بالمارة أو بالغوغاء المتجمعين فى الشوارع يتحرشون بى وبأمثالى من أصحاب السيارات واتجهت صوب عزبة الزيتون

كنت أنا وعمى فى شبه ذهول من هول ما رأينا فى طريقنا من حرائق تمتد الى الشوارع البعيدة عن وسط المدينة ، أما ذهنى فقد كان ملبدا بغيوم قاتمة من بعض ما ترامى إلى من تصرفات رجال الوزارة القائمة بالأمر ، ومما نقل الينا من عبارة نسبت إلى الملك قالها لضباط الجيش وقد كانوا ضيوفه فى قصر « عابدين » فى ذلك اليوم المشئوم ، ومن موقف عظيم وقفه رجال بلوك الخفر وبعض رجال البوليس ومعهم بعض العمال وطلبة المدارس ينادون بسقوط « فاروق » وبقيام زبانية البوليس السياسى ، أبالسة الشر يلقون القبض على كل رجل أوفتى يتوسمون فيه روح الحرية يزجون به فى السجون بدعوى أنه من لصوص الحريق

كل هذه الأمور والمشاهد وسواها أذهلتنى عن وجود عمى معى وقد جاء خصيصا من عزبته للاطمئنان على والبقاء معى فى بيتى ، ولقد تحاملت على نفسى وأخذت أرحب بعمى وأأهل فإذا به يستوقفنى بإشارة من يده وأخذ ينشد

أن دام هـذا ولم تحدث له غِيَرٌ
لم يبك ميت ولم يفرح بمولود

وردد إنشاد البيت أكثر من مرة فقلت له إن دوام الحال محال ، فقال : هذا صحيح ولكن التغيير متى وكيف يكون؟ وهل نحن أهـل لأحداث تغييرات ذات بال ؟ فأجبت :

كنت قلت لى أن لحوائط القاهرة آذاناً تسمع وألسنة تنقل ، أليس الأخلق بنا أن نعود إلى عزبتنا وأن نبقى فيها بعض الوقت ؟

قلت هو ذاك وقمت إلى حقيبتى فوسقتها بما يلزمنى من ثياب ، وحملت معى ما نحن فى حاجة إليه هناك من زاد ومؤنة ، وقلت لخادمى أن ينقلها إلى السيارة ، وأنى سأتغيب عن البيت بضعة أيام

قال الخادم : ألا يريد سيدى تناول الطعام ؟

نبهنى خادمى إلى واجب ذهلت من أدائه فرحت إلى عمى فلقيته غارقا فى مقعده فدعيته إلى تناول ما تيسر من طعام ، وإذ كنا فى طريقنا إلى غرفة المائدة عرجت بعمى على الصالون وقد إزدانت جدرانه بصور فنية ، ثم إلى غرفة التدخين ذات المقاعد الوثيرة ، ثم صعدنا إلى الطابق العالى حيث غرفتا النوم بكامل زينتهما وإلى الحمام وتنسيقه البديع وإلى غرفة مكتبى بخزائنها المكتظة بالمجلدات من الكتب ، ثم غرفة الضيوف المعدة إعداداً خاصاً لراحة عمى وحماتى وإرضاء « لصفاء » التى ترضيها راحة والديها ، فكان يهز رأسه هزة الارتياح

. . . . . لم نتكلم فى طريقنا إلى العزبة ، ولم أكن شارد الذهن بل كنت موجها كل تفكيرى إلى زملاء لى فى كليات الجامعة ، هل إنتزعهم البوليس السياسى من أسرتهم انتزاعا قبل انبلاج فجر ذلك النهار ؟ أعرف من بينهم من لا يمت إلى الأحزاب بصلة ، أما عمى فلم أكن أعرف سبباً لسكوته وشرود ذهنه . أتراه كان يخال أنى من الفئة التى تعمل سراً على قلب نظام الحكم منكرة

ذاتها معرضة حياتها للموت فى سبيل حرية الشعب واستقلال الوطن ؟ أو أنى أنتسب إلى طائفة هدامة لا يرتفع لها علم إلا على أنقاض دولة وجماجم شعب ؟ أو أنه يحسبنى من أولئك الوشاة يتظاهرون بالجاه والغنى والنسب الكريم يقربون أبناء وطنهم ودينهم قربانا على مذبح المحتلين وزلفى لرب القصر وزبانيته من رجال الحاشية لقاء أجر سحت ورزق حرام ؟ أو أنه يفكر فى مستقبل ابنته الوحيدة ويرى أن سعادتها رهينة بمعرفته طوية صدرى ووقوفه على دخيلة أمرى ؟ أو أنه خائف حقاً علىّ خوف والد حنون يرتبط هدوء باله باطمئنان بال ولده ؟

بينما كنت أقلب ظنون عمى بى وتوجسه منى ، أو بالأحرى بينما كنت أتوهم أنها شكوكه وريبه ، قفز إلى خاطرى فكر فجائى ما كدت أتبينه حتى تبينته وما لبثت أن ارتحت إليه وعقدت العزم على تنفيذه بلا إبطاء وقد ربطت راحة بالى ، ونقاء ضميرى ، وضمان مستقبلى ، وسعادة زوجى فى تحقيقه فورا . ثم تبين لى بعد التمعن والروية أن التلكؤ فى تنفيذ فكرى يكون وسيلة لبقائى

أترنح بين كفتين ، رجحان الواحدة منوط بهبوط الثانية ، وأن فى الرجحان سعادة محققة وخير عميم ، وفى الهبوط شر مستطير وشقاء قاتل لذلك أقول عزمت وتوكلت

......بلغنا العزبة وما كدت أترجل عن سيارتى وأجتاز عتبة الدار حتى رحت أتوقل الدرج قفزاً وقد وشيت وجهى بالبشاشة وتسربلت بالفرح ، وسرعان ما سرت عدوى مرحى إلى حماتى فرحبت بى كثيراً وأهّلت ، بيد أن خطيبتى كانت تلتزم الهدوء كعادتها ولا تفارقها الابتسامة المطبوعة التى تتألق فى عينيها ، أما عمى فقد تمهل كعادته فى صعود الدرج وراح تواً إلى غرفته يتخفف من ثيابه وقيودها وقد عاد يتدثر عباءة من وبر الابل ويشتمل بها وقد دعانى إلى الذهاب إلى غرفتى التى أعدت لى وتقدمنى اليها وهو يقول هذى غرفتك المتواضعة ولا سبيل إلى مقارنتها بما رأيت فى عزبة الزيتون .

عضضت على شفتى إشارة بالصمت ، وتقدمت من عمى أرجوه السكوت عما أعـــددت فى بيتى من مفاجأة

ستكون سارة « لصفاء » يوم زواجنا

لم تكن شهيتنا مفتوحة للطعام رغم ما على المائدة من مقبلات ، ولكنى شربت الشاى المعطر ، وتذوقت طعمه بلذة ، أما عمى فقد أخذ يضرب كفا بكف ويحوقل وهو يلوى رأسه يمنة ويسرى ، فقالت له ابنته ، وكانت تلك أول مرة أسمعها تدير حديثاً ، خفف عنك ياأبى فقد أنصت وأمى إلى حديث المذيع فى وصف نكبة القاهرة ، أما أنت وقد رأيت بعينيك ما تصورناه نحن ، فمن الطبيعى أن يكون تأثرك أكثر من تأثرنا ، ولذلك أرجوك ياأبى بل أتوسل اليك أن لا تجعل نكبة الحريق حديث الليلة ، والتفتت تقول لى ألا تشترك معى يادكتور فى رجائى ؟

أجبت بحماس أنى موافق على رأيها السديد هذا محبذ فكرها الثاقب ، واقترحت أن يكون حديث الليلة عن فضيلة الشيخ المأذون وحضرات الشهود الأماثل . وأرجو من حضرة عمى العزيز الموافقة على اقتراحى

لم يعر عمى كلامى التفاتاً وراح يتساءل لمصلحة مَنْ مِنَ الأبالسة حرقت القاهرة ؟ لا شك أن مصر المنكوبة وحدها

هى الخاسرة ، وأن فائدة المحتلين من هذه النكبة غير خافية على أحد ، ففى غد تنطلق صحافتهم ودور إذاعاتهم تنفث سمومها ، تعلن فى العالم حطة المصريين وتأخرهم عن مواكبة العالم المتمـــدين ، وسوء فهمهم لأمورهم ، وتـكالب رجال أحزابهم على المنافع الخاصة ، وتعصبهم الدينى على النزلاء الأجانب ، وبذلك تنتزع ثقة رجال المال والأعمال بمصر وأهلها ، ويتعثر دولاب الاقتصاد فى دورانه ، وعندها يزورّ أرباب الثروات من الأجانب عن تأييد الوطنيين فى مطالبهم، ويساندون الانجليز فى بقائهم فى مصر ، لا حباً فى الانجليز أنفسهم، بل لضمان تجاراتهم وتوطيد مراكزهم

وليست فائدة الشيوعيين من نـكبـة مصر بأقل من فائدة الانجـليز منها ، لأن الشيوعية لا تعشعش وتبيض وتفرخ إلا حيث الفوضى والاضطراب والفقر واختلال الأمن .

وهناك فائدة أخرى لمخلوق لا أسميه ، هو الخادم الأمين الأول للاحتـلال والمحتلين ، والعبد المتطوع ، عن غير قصد ، لخدمة الشيوعية والشيوعيين ، وإنى لأكاد أقول بتضافر

الأبالسة الثلاثة ، الاحتلال والشيوعية وابليس الذى لا اسميه على إحداث هذه النكبة ، التى لم تحلّ بعشرات من أصحاب المتاجر مصريين وأجانب فحسب ، إنما حلَّت ويلاتها بكل مصرى على الإطلاق

قلت لعمى لأزيل ألما نفسياً فاض على وجهه : ما قولك فى أن عواقب المصائب الكبرى تكون مقدمة للفرج القريب

نهض من مقعده كالقانط ومشى صوب الباب ثم التفت إلىّ وقال : لقد دنت ساعة العمل فويل لمصر إذا توانت أو تباطأَت ، وسدّد نحوى نظرة لا أنساها واستطرد يقول : لقد أجهدت نفسك اليوم ، وتعبت كما تعبت فالأفضل أن نأوى إلى الراحة

لقد تأَثرت بكلام عمى الشيخ ، وأعجبت بحيويته وعلوّ روحه ، ولكنى صمت ورحت أَتسلل إلى غرفة النوم التى أعدت لى .

من عادتى عندما أَستلق على الفراش أن أستسلم فى دقيقة واحدة أو دقيقتين إلى النوم المعيق ، أما فى تلك

الليلة فلم يطمئن جنبي إلى فراشي اللين الوثير ، واكتلأت عيناى كأنهما ترقبان أموراً تحذرانها ، فأخذت أتقلب أَرقاً ، ولما أعيانى الملل ، نهضت من فراشي وقد أسندت رأسى بمرفقى ورحت أقلب الرأى فى أَمرين : هل أرجىء زواجى إلى ما بعد انفراج الغمة وهى حتما قريبة الانفراج أَو أتعجله وفى تعجيله نجاة لى من التورط والانزلاق

كنت عازما على دعوة المأذون لتوثيق الزواج ، وقد أبديت رغبتى تلك لعمى ، ولكنه لم يعرها اهتماما ، بل راح يقرّعنى ويستثيرنى بله ويستفزنى إلى العمل

صحيح أن عمى لم يوجه إلىّ كلمة خاصة ولا دعانى الى عمل معلوم ، ولكن ثورة نفسه أَيقظت جوانب فى نفسى كنت أريد تركها هاجعة راقدة. ولأن استجابتى دعوته للعمل كما أفهمه معناه الانصراف عن الزواج، والابقاء على ابنته قابعة فى كنّ الوحدة والانفراد

تحيرت والله ماذا أفعل وكيف أتجه ؟ شيخ يضحى بسعادة ابنته الوحيدة من أجل وطنه ، وشباب خالون من أَكثر التبعات (أَنا واحد منهم) لا يعمل إلا لسعادة

نفسه ورفاهيتها على حساب وطنه !!!

لقد عرفت أن بعيد الساعة التى ألقى زبانيـة الأبالسة فيها النار على متاجر القاهرة ومنازلها ، اجتمعت نخبة من شباب مصر الأحرار للتداول فى أمور المستقبل ،ووقفت على القرارات التى أَقسموا أغلظ الإيمان وأقدسها على تنفيـذها ، ولـكنى وأقول لك الحق يا صاحبى جبنت أَن أقترب منهم أو . . . . أو أعمل معهم . . وانخلع قلبى رعباً ، لأنى أحب الحياة، وأبغض المغامرة ، وأكره الموت ، وأخذت أردد بيتاً من الشعر لا أَعرف قائله :

على الذم بتنـــا مجمعين وحالنا
من الخوف حال المجمعين على الشكر

أَخذت اهدى نفسى وارفه عنها مما أجهد ذهنى وكدَّ اعصابى ، ومن عجب أنى قضيت ساعات الأرق الطوال فى فكرة واحدة رددتها وراجعتها حتى أعيانى تكرارها ، ولم يؤنسنى طيف النوم الحبيب إلا بعد أن سمعت صوت مؤذن القرية وصياح الديك ، وزقزقة العصافير

نهضت من فراشى وقد مالت الشمس إلى الزوال

وأنا مضعضع الجسم ، فاقد الهمة ، فاعتذرت لمن أقلقهم نومى الطويل ، وما كدت أسترد نشاطى وأستعيد طيبة نفسى ، حتى رغبت إلى عمى فى استدعاء المأذون لأنى لم أعد أجد ضرورة للتمهل ، ولا داع إلى التأجيل ، ولا سبباً لبقائى بعيداً عن القاهرة ، ولما لم ألق منه ممانعة ، قلت لخطيبتى أن تعجل فى شراء الضرورى من ثياب العرس لأننا سنتشاور على مهل فى اختيار ما يلزم من ثياب تناسب الفصل وتساير الزى الحديث ، وبعد صلاة العشاء حضر المأذون وثلاثة من معارف عمى لعلهم كانوا من زملائه فى الوظيفة ، فكتب العقد وشهد الشهود ، وتقبلت تهانى المهنئين ، وبعد تناول العشاء وانقضاء السهرة فى الحديث عن عاداتنا القديمة وقيودها الموروثة وتحلل الجيل الجديد منها ، وعقب انصراف المدعوين وقفت أودع عمى وأشكره عن هديته إلىَّ « صفاء » الغالية وقبلت يده وخده ، ولما تقدمت لتقبيل يد حماتى تمثلت المرحومة والدتى فبكيت ، ثم مددت يدى أصافح عروسى ، وقد تبادلنا ابتسامتين من معانيهما الظفر والحب والرجاء . وقلت لها بلسان الزوج أنى سأحضر

بعد أسبوعين عقب عودتى من « أسوان » لاستصحابها إلى بيتها فى عزبة الزيتون .

... وبلغت القاهرة بعد أن اجتزت صفين طويلين من الأشجار الباسقة واقفة على جانبى الطريق تحيينى أغصانها ، أنا « العريس » برعشة وابتسامة

* * *

لم يكن خادمى يتوقع عودتى من السفر بمثل هـذه السرعة ... وما كنت أحسب أن الظروف مهما تباينت أنواعها وتعددت أسبابها بقادرة على تحويل الإنسان عن طبيعته وعما تعود

تذكر يا صاحبى أن قلت لك أنى ميال إلى التريث والتؤدة ، ولكنى فى خلال هذه المدة أو على التحديد منذ رأيت « صفاء » للخطرة الأولى واعتزمت الزواج ، قد تبدل تريثى بسرعة وتؤدتى بعجلة ، وصرت أضيق بالإرجاء والتمهل ، ولا أحفل إلا بالخاطرات والبدوات .

بهت الخادم الزنجى حارس الدارة حين سمع بوق سيارتى فنهض يهرول يفتح الباب على مصراعيه ، ولست

أدرى ماذا أصاب خادمى الطاهى ، وقد رغبت إليه إعداد فنجان من النعناع ، فلما أحضره وجدنى فى سريرى أغط فى نوم عميق

لم أنم فى الفترة ما بين خطوبتى وزواجى نومة هادئة مريحة خالصة حتى من الرؤى والأحـــلام إلا فى تلك الليلة

وفى الصباح المبكر عند ما استيقظت قفزت من سريرى قفزا ورحت أنظر فى المرآة ... وجهاً واضح السنة ... يتهلل من السرور ، فطفرت إلى الحديقة أتفرج على الأعشاب وقد نمت وفرشت بساطها السندسى ، وإلى أصص الزرع وقد نبتت أبصالهـا ، وإلى شجيرات الورد وقد نهضت سوقها وتفرعت أغصانها وبدت براعيمها ففاضت بالفرح نفسى ، فقلت وقد أجلت طرفى فى الحديقة المنسقة باتقان ينم عن ذوق الجناينى : هذه قصيدة من روائع نظم الطبيعة أقدمها هدية إلى « صفاء » زوجتى الحبيبة .

* * *

لم تـكن رحلتى إلى « أسوان » تزجية أيام فى الفراغ

أو الاستمتاع بما يسميه الشيوخ والضعفاء والنساء راحة . بل لإنجاز عمل يتعلق بمهنتى العلمية .

رحت مرات عديدة إلى « أسوان » وجلست طويلا عند شرفة الفندق المطلة على النيل أتأمل اختلاف وضع هذا النهر عما هو مألوف فى مجراه حتى مصبه فى البحر ، وفى حجارة سوداء ناتئة كأنها جزر بركانية طافية فوق عبابه ، وفى سماء زرقاء صافية صفاء لا نظير له فيما رأيت فى الشرق والغرب ، وفى ليل تتزاحم نجومه وتتنافس فى سفورها وفى تجليها لألأة لامعة ، وفى جبال تسكن صخورها طغام من الجان ترمينا بنظرات غمّازة من لمعان ذريرات المعادن

إن أَنس لا أنس من ذكريات « أسوان » يوم كنت وطائفة من أساتذة وطلاب وطالبات جامعتين الأولى مصرية والثانيه أَميركية فوق الجسر العظيم المعروف بالخزان وقد أرعدت السماء وأَبرقت وما لبثت أن نضحتنا برذاذ كأنه قطرات الندى فى أصباح الربيع ، وكيف بهتنا من تحليل أشعة الشمس فى كريات ماء السحاب وظهر قوس قزح فى ألوانه السبعة بادية الوضوح من البنفسجى حتى

الأحمر ، وكيف شدهتنا وقد تكسر السحاب الأبيض فصار أشبه بكوم من الصدف اللؤلؤى يعكس ضوءه الشفاف الملون على الأمواه المتدفقة من عيون الخزان فرأيت «القبة المقلوبة» فى ضحى النهار ، وكيف أتلعت الفتيات أعناقهن يرمقن السماء الجميلة المتبرجة بالفتنة والسحر بنظرات الغيرة والحسد

ومما أذكر ونحن نعتلى ظهر الخزان، هذه البدعة الفنية العظيمة فى اختزان الماء مأخوذين بفتنة السماء ، وبالظاهرة الجوية البديعة النادرة الحدوث ، وبجاذبية المياه تتدفق فوارتا من عيون الخزان فترينا الجلال والجمال فى آن واحد ، فى هذه اللحظة استخف الطرب الشبان والشابات فراحوا يصفقون ويغنون ، وقد أنشد طلاب وطالبات الجامعة الاميركية أنشودة مطلعها « ياللإله القادر العظيم ،وما أحلاك ياسماء »وغنى طلاب الجامعة الأخرى وهم يصفقون مقطوعة من نظم بديع خيرى كان يغنيها المرحوم نجيب الريحانى وفرقته !!!

ما أكثر ما انطبع فى ذهنى من مرائى فى « أسوان »

لا تمحى من المخيلة ، منها غروب الشمس تبرقش السماء بغلالات شفافة من الورد المنثور ، وأمشاج الياقوت القانى ، كأن فنانا عبقريا يعبث بصفحتها ويلونها بألوان بهجة لا تعرف لها أسماء لتعدد درجات سلمها اللونى ، وانى لأذكر حديقة فندق « كتارا كت» على التخصيص وورودها المتفتحة ، وأزهارها المجنونة تتزاحم ترفع رؤوسها شامخة ، أو تنحنى بدلال ، أو تتمايل وتتلوى بغنج ، أو تستتر تحت أعناق أخوتها حياء ، أو تتراخى فتتوسد على العشب الأخضر ، والحياة فيها ناشطة مسرفة فى نشاطها

لقد تبدت الأزهار فى تلك الحديقة كأنها عيون تغمز غمزات الحب والاغراء ، وشفاه مشرأبات للقبلات ، وثغور تفتر بالابتسامات ذات الأسرار التى تعنى روح الحب ، والغاية من الحياة ، والوسيلة إليها ، وخميلة متراصة متشابكة أغصانها ، وأشجار تتيه دلالا وميسانا ، يختلن عجبا وزهوا ، يتحدين رشاقة وفتنة وسحر زائراتها فى الصبـــاح والضحى من نزيلات الفندق يرتمين عند أقدامها وحفاف سوقها يقارن بين زهوها

وكبريائها تجتذب النحل يترامى على ثغورها يترشّف رحاقها ، وبين قبوعهن وحيدات متروكات نائيات عن المرح والسرور مع من تخفق قلوبهم لخفقات قلوبهن ، وتشتاق شفاهم شفاهن ، وتتجاوب خلجات وجدانهم مع وجدانهن .

في طبيعة جو « أسوان » خاصية عرفها طبيب نطاسى ألمانى يدركها الشيوخ معنى وحسا ممن يقيم فيها بعض الوقت من فاقدى النشاط ؟ !!!

لست أعلم ياصاحبي إذا كان تفتح نفسى ، ويقظة روحى ، وتنبه وجدانى ، واعتلاج عواطفى للحب والحياة هى التى صقلتنى فبلورتنى فجعلتنى أرى وأشعر وأحس فى « أسوان » مالا يراه ويشعر ويحس به سواى من الناس ، وكنت برغم يقظة نفسى لا تخطر زوجتى فى بالى لأنى ملكتها ولم تعد تتراءى صورتها فى مخيلتى بقدر ما كنت أرى شبح والدها منتصبا أمامى ، وأسمع صدى كلماته يتماوج فى سمعى

قلت يبدو لى أن حماك يشغل تفكيرك ويدفعك عن الاهتمام بعروسك فقال :

لاشيء يصدني عن التفكير في عروسي ، أنت تعلم أن الزواج استسلام وعزم ، أما أنا فقد عزمت واستسلمت فلا أقل من آن أستريح بعض الوقت ، راحة تشد عضدي في احتمال المسئولية الصغرى القادمة والتي ستليها مسئولية الأولاد الكبرى

قلت : أحسب أنك رحت إلى أسوان تريض رياضة روحية تنجيك أو تخفف عنك عذاب جحيم الزواج

فابتسم وقال : الانفراد وسيلة للانطواء ودراسة ما عرض للنفس من مشكلات ، والاستجمام غرض الراحة ، وعلى أضواء الاستجمام والانفراد والراحة أخذت أقارن بين عمي الشيخ الذي تنبض في عروقه دماء حارة في حب وطن لأهله جميع خصائص الشعب الحر ، وبين صديقك ذاك ، المدعو «القمعدار» بك ذلك الشيخ الديديس الذي لا يفتر لسانه عن شتم مصر خاصة والشرق العربي عامة ولا يني يحط من أقدار شعبها ويقول فيهم « أن انبعاث الأموات محال » ! !

قلت من القمعدار ذاك ؟ قال هو صاحبك الخائب الفاشل

قلت :هل تقيم وزنا لذلك الموتور؟ هل يغرك تشدقه في زمرة

يطعمهم فيسكنون على هرائه ؟ إنه وحقك لأجبن من أن يتفوّه بكلمة فى بيئة الوطنيين الأحرار ، ثم كم عدد من فى مصر من أمثال ذلك المدخول النسب من الذين يتمسحون بمجد محمد على وفتوحات ابراهيم ويلصقون ذواتهم بهما لصقا والحقيقة أنهم ليسوا منهما ولا هما منهم ألا بقدر تقارب الشذاذ والتفاف بعضهم حول بعض حين ينزلون فى قوم ليسوا من قبيلهم ولا من جنسهم ، وتلفت حولى أقول « اللعنة على هذه الأسرة وعلى من التفّ بها من اللصوص »

واستطرد يقول : لم يخطر ببالى صاحبك الموتور بالذات إلا لأقول لك أن القمعدار هذا كان فى بعض الأحايين ، بل فى أكثرها يتكلم صدقا ولا يقول ألا حقا ، لا حباً فى الصدق بل محاكاة لشيطان رجيم يبلغ أرذل العمر فيمثل دور الملاك ، وأنى برغم إحتقارى سفهه وآرائه السياسية وافتتانه بحب المستعمرين وتمجيده أعمالهم وتطوعه فى خدمه المحتلين نكاية بالمصريين ، وامعانه فى شتمنا وقزعنا ورمينا بما نحن منه براء ، برغم كل ذلك أحترم الحقيقة التى أسمعها منه أو سواه من الناس ، لا لأنها حقيقة مجردة ، بل لأنها تدلنى

على مكمن الداء فى نفسى وفى قومى وتنبهى إلى ما يجب علىَ عمله كى استأصل علىّ بنفسى دون اللجوء إلى أحد ، وأخيراً لصدورها من عدو لدود يلبس ثياب الصديق الودود

واستطرد يقول ، ألا قل لى بربك أَليس آباؤنا هم الذين دعكهم الإحتلال دعكا وطحنهم طحنا فجعلهم مثالا لليّونة والتّميع والاستكانة ؟ ألسنا نحن أبناء أَولئك الآباء ؟ صحيح أننا استفقنا على حادثات مشانق دنشواى ، وصرخات مصطفى كامل ومحمد فريد ، وقومة سعد زغلول ، ووصحيح أننا رحلنا إلى بلاد الناس نغترف العلم من مواردها ننهله من ينابيع معاهـــدها الصافية . . . . ولكن لما عدنا استقبلتنا إدارة حكومية عفنة تسودها فوضى مجنونة فبعثرتنا ، عن جهل أو عن قصد هنا وهناك ، ومزقتنا شر ممزق ، فجعلت من المهندس كاتباً ، ومن المحاسب مزارعاً ، ومن الرسام شرطياً ، ومن الاقتصادى مساحاً ، ثم جرفتنا السياسة الداخلية بتيارات الفوضى ، فتبنانا الساسة المتحزبون ،فملأوا جيوبنا الفارغة بالمال ، وأدمغتنا الليّنة بالأمانى المعسولة ، ثم سعينا نحن إلى الرجوع إلى قواعد إختصاصنا بالمال ، فاشترينا وظائفنا بالرشوة وماء الوجه ،

وبأثمان أخرى أتعفف عن ذكرها ، وليس هذا بعض ما دفعناه من مال ، ولا كل ما أهدرناه من كرامة ! ! وانى لأسألك هل قامت جماعة من المتعلمين ، هل فكرت طائفة من المثقفين ، هل جال فى بال الموظفين وغير الموظفين ، هل سمع أحد منا همهمة تدل على تأفف ، أو غمغمة تشير إلى تزمر ، أو أننا رحنا نؤازر هذا الوزير وذاك ، ننتمى الى هذا الحزب مرة والى الحزب الآخر مرة أخرى ، لا لتفضيل مبدأ عن آخر بل لننعم برضا الحزبين ؛ وبمال الخزينتين العامرتين بأرواق النقد نملأ محافظنا ؟ ؟ ! !

هذه حقائق يجب الإعتراف بها . فالذى أحمده لصاحبك القمعدار بك هو تنبيهه إيانا إلى هذه العلل القاتلة، ولكنى أسفت بل لمت نفسى أشد اللوم كيف لم أتنبه إلى حقائقه الابليسية تلك وكيف لم أتبين خبثه وهو يشيعها فينا على اعتبار أنها حقائق مجردة وقد صرنا كما أراد أن نصير : صرنا نستهين بالفضائل ولا نرعى الحرمات ولا نتمسك بعادات بيوتنا وتقاليد قومنا . وما عتّمنا وياللأسف أن أخذنا نقوّم الفضائل ونزنها بميزان الجنيه والفدان فقط ، وكأن المال هو العنصر الوحيد والسمة

المميزة لخليقة هـذا الجيل .

والفرق بين عمى وبين صاحبك القمدار بك أن الأول مصرى يدين بدين الشرق ، والثانى تركى طورانى ، وأن جنسيته الرسمية واستيطانه مصر لم يبعداه عن طورانيته وعن عنصره المخرب المدمر ، وعما هو مطبوع عليه من عنجهية كاذبة وكبرياء مصطنعة . ناهيك بشخصيته وما لازمها من الفشل والخيبة فى كل ما عمل طوال حياته ، ولا يغرنك لباسه المسوح ، وتكويره العمامة خضراء فوق رأسه ، وحمله المسبحة ، فالله وحده يعلم وهو يقلب حباتها بماذا تتمتم شفتاه من الحقد على مصر ومن الكراهية للعرب ، وأن نطقه بالحكمة وتعمله الظهور « بمركب التفوق » لا بمركب النقص فى حديثه عن نفسه إنما هو تغشية وتمويه لما ينخر فى صدره ، ويغلى فى جوفه ، من أهل قومه الذين أنكروه ، ومن المصريين الذين نبذوه ورذلوه ، وهكذا قد بات مكروها من كل النـاس ، وملعوناً من كل شرقى وعربى

قلت لعلك تناسيت ، ذكر ثلاثة عوامل أخرى لا تقل عن تخرصات القمعدار بك والنفاية البـاقية من أبنـــاء

جنسه تهزّنا هزا ، وتدفعنا دفعاً إلى حياة جديدة .

قلت ماهى ؟

قال : طائفة العلماء المؤرخين ، وقادة الفكر من الأدباء والمدرسين ، ومصابيح الجيل من حملة أقلام .

قلت ما خطب هؤلاء أيضاً ؟

قال : إذا كان للقمعدار بك ، ذلك الصديق اللدود والعدو الودود من الفضل فى تعييرنا بما فينا من علل خلقية واجتماعية ، فإن فضل هؤلاء علينا أوفر وأعم .

قلت : كيف ذلك ؟

قال : لقد نهض المؤرخون المعاصرون وعلماء التاريخ الحديث الأجلاء ، فاتخذوا لذواتهم ندوة تليق بكرامة العلماء ، كدّسوا فيها المجلدات تكديساً ، ونسّقوا الكتب التى كتبت فى محمد على وسلالته تنسيقاً ، وراحوا يعصرون يوافيخهم عصراً ، ويجهدون قرائحهم إجهادا ، يدسون بين سطور التاريخ سطورا ، ويمحون من تلك الأسفار سطورا ،

ويدخلون عليها وقائع منتحلة ، فيحاضرون الصفوة من المتعلمين بخلاصات أو مقتبسات من تلك التواريخ المحرّفة ، ويخرجون للناس تواليفهم المكذوبة ، يفرضون تدريسها فى دور العلم فرضا، ومن عجب أن الخديوى إسماعيل المفترى على مصر وأهلها ، والذى حملها من الديون أثقالا ناءت بها أعواما طوالا ، والذى نشر الفجور والدعارة نشرا ، أضحى بفضل هؤلاء العلماء مفترى عليه !!.. وأن الملك الصالح كما تنعته الصحف كلها ، المعروف النسب من ناحيتى الأب والأم ، قد تحول بقدرة قادر ، من طورانى مشكوك فى نسب جده إلى عربى قرشى ينحدر من العترة النبوية ، عترة محمد بن عبد الله ، حدث كل ذلك بفضل العلماء الأجلاء ، علماء الدين وعلماء التاريخ الحديث !!!

والأنكى من هؤلاء العلماء وأكثرهم افتراء على الحق والواقع ، عالم بالآثار ، متخصص فى المصرولوجيا ، يدرّس هذا العلم فى إحدى الجامعات ، لا هو فى عير السياسة ولا فى نفير الأحزاب ، هذا العالم المجهد الذى أقام فى ألمانيا عشر سنوات على نفقة الحكومة ، أبى عليه طبعه إلا أن يحشر نفسه

فى صفوف المؤرخين ، وإلا أن يتخذ من التاريخ القديم وسيلة للزلفى والخضوع يتقرب بهما من الأعتاب الكريمة ليحظى بالرضا الملكى السامى .

قلت مادخل التاريخ القديم فى الازدلاف إلى الحاكم والتزلف اليه ؟

قال : فى التاريخ المصرى القديم حكاية ملكة كانت لها علاقة بخادمها مشوبة بالشبهات ، وأن الأدلة التاريخية المنقوشة على الحجارة فى معبد الكرنك وغيره تدل على صدق الرواية وصحتها الصارخة ، وأن أهل تلك الملكة الفاجرة عرفوها فى زمانها ، فمحوا آثارها التى نقشت بمعرفتها هى على الحجارة الباقية ، ليطهروا اسم العائلة التى دنستها ، وينقوا صفحات التاريخ من عهدها الفاجر . ولكن دوافع التزلف لولى الأمر ، دفعت ذلك العالم الوضيع النفس إلى أن يسجل فى كتابه « فى مواكب الأقمار » قولا لا مرية فى تجنى قائله على المسطور المأثور منذ آلاف السنين ، ويقول فى تبرأة تلك الملكة الفاجرة : وددت لو أنى كنت أملك من الأدلة والشواهد ما يعيننى على تبرئة ساحة الملكة لما ترددت عن ذلك ، لأنى أكره لحياة

للملوك والحاكمين أن يصوّرها التاريخ على هذا النحو المريب. ويقول فى دفاعه عن أحد أولئك الملوك وهو ضريع تلك الملكة وشبيهها فى إنحطاطها الخلقى « يحزننى أن يكون فرعون وهو ملك الناس ، وإمامهم، وخليفة الله على الأرض . . . . أن يكون متّهما فى رجولته ! ! ! »

كم فى كتاب ذلك العالم الأثرى المهين الكرامة من أمثال هذا الدفاع الواضح الغرض ، هو الزلفى للحاكم الفاجر والتضليل لأفكار الشعب ، ولعل أحقر إدعاءاته وأجرأها على العلم ، إهابته بالمؤرخين أن يغلبوا الخير على الشر فى سرد وقائع الأسر المالكة لأن زلل الملوك يمس كرامة الأمة والوطن !!! »

قلت ما ذنب الأمة المظلومة والمغلوبة على أمرها ، وما هى جريمة الوطن المنكوب بملوك فجّار وملكات داعرات ؟

قال ألم تر ياصاحبى أن هذا العالم الأثرى هو أحقر من مؤرخى العصر ؟ وأن هؤلاء أكثر حطّة ومهانة من العلماء الذين تجرأوا فتوقحوا فجعلوا من الطورانى عربيا ومن النغل أصيلا ؟ ألا يستحق هؤلاء الأوغاد شكرنا

لأنهم نبهوا أذهاننا بكذبهم ، وأيقظوا نفوسنا بنفاقهم ، وهزوا وعينا برياثهم وأفكهم ؟

ثم ماذا تريد أن أقول فى الأدباء ؟ هذا كبيرهم الكبير ، العريض الجاه ، المستفيض الشهرة ، الذائع الذكر فى الشرق والغرب ، العالى الكعب فى الفن ، النابه الذهن ، السفير غير الرسمى لكل دولة ، الطموح إلى بلوغ ما لم يستطع بلوغه سواه من المبصرين ، أنظر إليه وهو يترامى على يد الطاغية يتهافت على تقبيلها ، ثم يعتلى المنبر فيندلق فى مدحه اندلاق الماسورة المنفجرة ، ويسرف فى تعديد خلائقه وشمائله ويغالى فى مناقبه . وكيف كان يستمع الطاغية إلى ذلك الخطيب الأنيق اللهجة يتدفق فى المدح ويتميّع فى الاستخذاء والخضوع ، ويتهافت فى الاستجداء ، وكيف صافناً يقـــارن كلامه هذا بما كان يصوبه إلى صدره من سهام مسمومة وكيف ابتسم ابتسامته الصفراء وانثنى عنه انثناءة المستهين كأنه لا سمع ولا رأى ؟ !

أتذكر كيف حرد الأديب الكبير حرد الطفل المدلل حرم من قطعة الحلوى ، وكيف ثار ثورة الوليد البكّاء يضرب

الأرض بقدمه فى طلب قطعة الحلوى

ما هو نوع الحلوى ذاك الذى يستذل كبرياء الأديب الفنان ؟ أى تمجيد للأديب أَمجد من إحترام ومحبة قراءه له ؟ ما قيمة أديب يستجدى ؟ ثم ماذا ولماذا كان ذلك الأديب الهمام يستجدى؟

لقد مدّ الشحاذ يده يطلب بذلّة وانكسار من سيده الطاغية كسرة من رتبة يتعالى بها على الزملاء !! كأن الرتبة هى التى تعلى من قدر الأديب لا العكس

أتدرى ياصاحبى كم دفع صاحبنا ثمنا لتلك الرتبة ؟

من الأمور ما تضطرنا الكياسة على السكوت عنها ، ومنها ما تجبرنا أخلاقنا على الاغضاء والصمت ، إذ ليس كل ما يعلم يقال

قلت : عرفت الأديب الذى تعنيه ولكن ألا يحسن بك أن تسوّغ مواقفه منك بانحشاره فى الحكم وتحزبه الشنيع ، وتبرر تكالبه على الرتبة ليتساوى مع أقرنه ورصفاءه

قال : كان بودى أَن أبرأ ساحة هذا الأديب الكبير من جريمه التبذل وأن أساوى بينه وبين أنداده من كبار الأدباء

الذين أعادو الأدب إلى العصر الذى كان أمثالهم فيه يقفون على أبواب الخلفاء يستجدون منحة أو خلعة أو عطاء ولكن إشراك العلماء والأدباء معه وتلويثه إياهم بما تلوث هو فيه هو الذى يجسم مسئوليته ويضاعفها اسمع ما يقول :

يفخر الجامعيون بأنهم يشاركون ملكهم فى عيده، فأعياد فاروق أعياد جامعته، وسروره سرور لها، ومن حق الجامعيين أن يفخروا ويفرحوا لأن كل واحد منهم فاروقى، فهذا اليوم يوم عيد العلم للعلم، وعيد علماء المصريين جميعا وأن العلماء والمتعلمين. والباحثين وطلاب البحث، يرجون أن يرفع إلى جلالة الملك المعظم ما تكنه قلوبهم من شكر أصدق الشكر، ومن حب أخلص الحب، ومن وفاء أحسن الوفاء لشخصه الكريم. فان ما تفضل به جلالته على العلم والعلماء من منن لا سبيل إلى تقديرها وليس إلى إحصائها من سبيل. ثم قال : ما جئت لأقف على مدى حب الشعب لك يامولاى، لقد عرف العالم كله أن شعبك قد أحلك عرش قلبه وهو عرش لا يزول كغيره من العروش»

قلت إذا كان هذا حال الأدباء والعلماء والمؤرخين فكيف بربك يكون حال حملة الأقلام ، قادة الفكر ؟ وكيف يكون حال الشعراء الذين لا تواتيهم شياطينهم بالوحى إلا فى زفاف أو مأتم أو حول مائدة طعـــام أو خوان شراب ؟ وكذلك كيف حال المعلمين والمدرسين مفاتيح أذهان الجيل رجال المستقبل ؟

قال ليست العبرة ياصاحبي فى نبش القبور بل الجدارة فى ردمها حتى لا يفوح نتنها

قلت زدنى علما ووضوحا

قال سأزيدك رمزا وتورية .

قلت أتخشى صاحبة الجلالة ذات القوة الرابعة فى الدولة ؟

قال بلى وأخاف الطبال والزمار والرقاص والمهرج وكلب الحاكم الوشاه النمام أيضا واستطرد يقول : برغم ما أصابنا ياصاحبى من نفاق هؤلاء المنافقين ، وما أشاعوا بيننا من روح الاستخذاء والخرع وعدم الثقة بالنفس . برغم فعالهم تلك وقد قاموا بها مأجورين أو عن جهل بروح الأمة ، فأنا أحمد لهم فعالهم وأكبر سعيهم لأن إسرافهم

فى التضليل وإمعانهم فى قلب الحقائق ، جعل دعايتهم المغرضة تنحرف عن طريقها وتنقلب إلى ضدها .

قلت هل تظن أن يقوم شاب مهوس يفرغ رصاص مسدسه فيردى الطاغية ويريح البلاد من فجوره ؟

قال صه يا أحمق ولا تتفوه بما يجول فى خواطر الشباب المتحمس لأنه لا فائدة فى القتل ، ولأن القتل يجرّ على البلاد ويلات ونكبات فضلا عن أنه يجعلنا مضغة فى أفواه العالم الذى سيحكم علينا بعدم النضج ، ومن الصواب أن نختزل هذا الحديث الشائك .

استراح قليلا ثم ركز ميزان دماغه بسيجارة كما يقول هواة التدخين وقال : تصرمت المدة المقررة لإقامتى فى « أصوان » وتمنيت لو أقيم أياما أشبع الروح من جمال الطبيعة المنتثر فى كل صوب فى السماء وفى الأرض . وعدت إلى القاهرة أسمع من أحاديث المجالس شبه همهمات أقرب ما تكون بدوىّ النحل ، وكان كل محدث يبالغ فى الغمغمة والهمس ، وفى إلباس قصته أو الخبر الذى يرويه عمامة الوقار وطيلسان العلماء وبُعد اتصاله بالمقامات العليا

بالرجالات أصحاب الرأى والحل، فى حين أن الشرذمة القليلة أو الحفنة الصامتة كانت تجتمع وتدرس وتقرر وتدبر التدابير وترسم الخطط بعيدة عن الأبصار والأسماع لا يحس بوجودها أَحد من أصحاب العيون والآذان

صمت هنيهة ثم تنهد وقال : ضدان يا صاحبى لا يطمئنان، كذاب قوى الذاكرة لامع الذهن يلبس الكذب ثياب الصدق ، لا يخشى عاقبة كذبه قدر ما يخاف أن تخونه ذاكرته مرة واحدة فيفتضح أمره . ومأجور على عمل يكرهه ولكن أجره يغرى الغنى فضلا عن الفقير فى التغاضى عن أداء ما هو واجب ، وعلى قيامه به خير قيام غير آبه بوطنه ولا بعذاب ضميره

قلت على التوّ أَى الرجلين أنت ؟

حدجنى بنظرة حادة وقال : أنى لأدفن فى قرارة نفسى سرّ أتمنى أن لا يصحبنى إلى القبر .

قلت مازحا هل كنت عيناً فأغمضتها ؟

قال وهو يتحدى مزاحى لا ... لا ... بل عزمت على الزواج وتزوجت وتوكلت على طمأنينة ضميرى

وفى صباح يوم ركبت سيارتى ورحت إلى «قحافة» ضيعة الزوجة الحبيبة وبعد السلام على عروسى وأبويها، هرولت إلى المطبخ كعادتى أفتش عن رغيف رقيق شفاف مقدد، وقطعة من الجبن وطبق من العسل، ولم أمهل حماتى لتهىء لى ما أستطيبه من حواضر البيت . أما عروسى فقد كانت أسبق من أمها فى مد المائدة ونثر الأطباق مملوءة بما ادخرته لمثل هذه الزيارة وفى تزيينها بالأزهار .

قلت : المعروف عند الفلاحين أن الفتاة تحتجب عن عريسها إلى أن يبنى بها .

قال : والله لا أدرى إذا كانت حماتى وعروسى فلاحتين أو متحضرتين ، لأن الشكل يدل على الريف والقول والعمل من صميم المدينة .

لم يسألنى عمى عن أخبار مصر ، وقد أجبت زوجتى على سؤالها عما انطبع فى ذهنى عن « أصوان » ورحت أشيد بالجمال الذى لقيته فيها ، وأطنب فى المتعة الروحية التى استمتعت بها هناك .

لم يرحْ جوابى زوجتى، وقد أدركت من انضمام

شفتيها أنها أمسكت عن الكلام ورحت أسألها ماذا جهزت من ثياب العرس ؟

قالت : الفستان الأبيض وواحداً للخروج وآخر للسفر .

قلت صورتك ... هل لديك صورة شمسية ؟

قال عمى يسألنى هل أنتما مزمعان السفر إلى الخارج؟

قلت هو ذاك وفى ذلك اليوم قررنا موعد العرس واتفقنا على أن نخص أَنفسنا بالفرح وألا نشرك فيه أَحداً من الناس .

.... وفى صباح اليوم الموعود وصلتنى برقية من عمى يقول فيها أَن أمنية إبنته أن أَحضر فى ثياب « سموكنج » .

سموكنج فى « قحافة » ؟ قلتها بصوت مرتفع وأنا أقرأ البرقية ، وعدت أقول وأنا أَبتسم إبتسامة عريضة ، يظهر أَن شيطانتى الصامتة تميل إلى المطايبات والمعابثات كما أميل أَنا إلى المفاجآت .

لم أستصوب إرتداء السموكنج فى عصر النهار ، ولكنى صدعت إلى طلب عمى فى تحقيق أمنية عروسى . فارتديت حلة سوداء وأخذت معى سترة السموكنج

وطاقة صغيرة من الزنبق الأبيض ، وقبل مبارحة دارى أَلقيت نظرة على الغرف خصوصاً غرفة المائدة وقلت للخادم أن لا يحرق أَعواد الند ويطلق البخور إلا بعد أن ينتهى من تصفيف الأزهار فى الأوانى ويكون ذلك بُعيد الساعة العاشرة محافظة منى على طيب رائحة البيت وعلى رونق ونضارة الأزهار .

لم أقل لخدم البيت أنى سأتزوج ، ولم تند منى كلمة تدل على ذلك ، ولم أَدرى كيف عرف العم « عثمان » خادمى الخاص بالأمر إلا حين رأيته واقفا والبواب والطاهى والبستانى ووقف سائق السيارة معهم بوجوه باسمة وشفاه صامتة كأنها تنتظر إشارة منى لتنفرج وتقول لى بصوت واحد « مبارك » دلالة على اشتراكهم معى فى فرحى بالزواج .

لاشىء يفرح الأجير أوالعامل الكادح غير المال ، لا الطعام ولا الكساء ولا الشراب تساوى القرش الذى تنقده إياه ينفقه فى إسعاد ولده أو من يحب من الناس . فى ذلك الموقف الوديع والبسمات المتوسلة ، تصورت معانى اللذة فى

إنفاق المال ، وأيقنت أن فى استطاعتى إشراك هؤلاء الرفاق من الخدم معى فى أفراح نفسى .

أعطيتهم من المال ما أفرحهم ، وسمعت منهم أنشودة جذلهم وابتهاجهم دعاء لى و توسلات إلى الله أن ...... وأن ...... وأن . وركبت السيارة ، ولشد ما أدهشنى وقد رأيتها مزينة من الداخل بالأغصان والأزهار يفوح منها العرف الطيب .

إن الذى زان سيارتى بهذه الأزهار المنمنمة إنما هم الخدم الخلصاء الأوفياء الأقرب إلى نفسى ممن أسميهم أصدقاء ، فصداقة هؤلاء ومن هم على شاكلتهم من العمال المأجورين لا تتقلب بين خير وشر ، بل هى إن نهضت للخير إرتفعت إلى الذروة واستقرت فيها مع الأمناء الأوفياء ، وإن هبطت هوت إلى دركات السجن مع المجرمين ، فالتفت إلى أصحابى الأمناء أشكرهم بابتسامة هى كل ما استطعت أن أقوله وأبلغ ما قدرت على التعبير عن امتنانى منهم لأنى بكيت .... وراحت السيارة تدرج متمهلة فى سيرها إلى « قحافة »

أمن الممكن أن لا يكون أهل « قحافة » كلهم من

الكبير إلى الصغير لا يعرف خبر زواج إبنة « حامد بك » ؟ . . . هل يمكن لأهل هذه الضيعة القليلة العدد أن لا يدفعهم الفضول وحب الاستطلاع إلى رؤية العريس أو الدنو منه والتفرج عليه؟ هل يمكن أن يكون سلطان « حامد بك » ممدود اللواء على أهل القرية كبيرهم وصغيرهم إلى حد أنى لم أر فى زياراتى كلها واحداً منهم فى طريق أو فى حضرة عمى؟ ليس للفلاح ثمة حديث فى مجالسه إلا حديث القرية وأهلها ، ولا يعقل أن يشذ أهل « قحافة » عن طبيعة الفلاح المصرى ؟

كأنى بأهل ضيعة عروسى قد كبتوا ذواتهم وحبسوا أنفسهم طوال مدة خطوبتى بتأثير من عمى ، وكأن معين صبرهم قد نضب فاندفعوا الليلة يظهرون إبتهاجهم وفرحهم بتجمع الصبية قرب دار عمى ومن ورائهم فتيات ونسوة ما أن لمحن سيارتى مقبلة حتى أطلقن زغاريد من حناجر منها العامرة بالقوة ، ومنها الغصّانة .

لست أكتم عنك ياصاحبى شدة فرحى بهذه المظاهرة وسماع الزغاريد فى تلك الساعة . لقد كانت مفاجأة سارة

لى ، سررت بها وطربت ، كأنى أسمع قطعة من الشعر الرفيع تنشده « أم كلثوم » بصوتها النقى الحلو فى ساعة من ساعات صفاء الروح وتفتح الوجدان .

بماذا أكافىء أولئك الجيران ، جيران عروسى على تجمعهم عند باب الدار يطلقون موسيقى حناجرهم بزغاريد لايعرفون وسيلة سواها للتعبير عن الفرح ؟

ودخلت الدار ألبس السموكنج ، أحمل باقة الزنبق الأبيض ، فرأيت عروسى فى حلة العرس بيضاء مجلوة كأنها فى جلال الملائكة على عرش الجمال ، وكدت لشدة ابتهاجى بعروسى وطلعتها المشرقة ، أذهل عن حماتى وهى تحاول أن تزغرد فتخنقها عبرات الفرح ، ومن عمى أيضا المهيب الطلعة وقد كانت كل جارحة فيه تدل على الغبطة والانشراح .

تقدمت من عروسى أقدم إليها باقه الزنبق ، والتفت إلى حماتى أرجوها أن تحلى أذنى إبنتها بقرطين من الماس النفيس جعلتهما هدية العرس وقلت لعمى أساله بعد أن قبلت يده أى هدية يحسن أن أقدمها إلى جوقة « قحافة » الموسيقية ؟

فأَجاب : لقد أعددت لهم وليمة الفرح

قلت : هذه وليمتك أنت ولكن ما هى الهدية التى تقدمها « صفاء » إلى أولئك الفتيات والنسوة المزغردات والصبية الحفاة العراة ؟ وقلت لنفسى

كم كنت أنفق من المال لو أقمت حفلة غناء أو شراب للأهل والأصدقاء ؟ وهل كنت أسلم من أَلسنة أولئك الأهل والأصدقاء ؟ أولو أَنى تبرعت بنفقات الفرح لجمعيات البر والإحسان هل كان يصيب هؤلاء الحفاة العراة إلا النزر القليل منه ؟ أليس الأقربون أولى بالمعروف ؟

ثم قلت لعمى ، لى رجاء أرغب أن تحققه الليلة وهو أن توزع هـــذا المبلغ من المال على ربة كل بيت من بيوت الضيعة .

ثلاثون أسرة هى مجموعة سكان الضيعة نالت نصيبها من الهدية ، هدية العروس « صفاء »

ثلاثون أسرة برجالها ونساءها وأولادها اشتركت معنا بفرح يماثل فرحنا .

وددت أن أقوم بنفسي وتقوم عروسي معي على خدمة فلاحي الضيعة وهم يتزاحمـــون على الطعام الذي يغذي أبدانهم ويشبع معدهم التي اعتادت القوت الكفاف

لقد فرحت كثيراً حين رأيت عمي الشيخ يدور حول موائد الطعام الممدودة في صحن الدار يهش لكل مدعو ، يؤهل بالكبير ويرحب بالصغير ، وسمعته يقول للطاهي أن يبعث بأطباق الطعام والحلوى إلى ربة كل بيت في الضيعة لم تقو على الحضور

أنها لفرحة روحية حقاً أن يشرك الغني الفقير في أفراحه ، أنها لغبطة مقدسة أن يشعر الإنسان أنه أدخل الفرح على قلوب مغلقة على شدائد ومتاعب ، وعلى أنغام هذه الغبطة اللدنية قضينا ساعات العرس وسمعنا ثرثرة الشباع وأدعيتهم البريئة

همست في أذن عروسي بأني جوعان وأن العشاء ينتظرنا في بيتنا .

وقفت لوداع أبويهـــا تسكب على كفيهما دموع

الشكر والامتنان ، وكذلك وقفت أردد بصدق قصيدة الامتنان والشكر لهذين الشيخين الكريمين وقد أودعا قلبي فلذة كبديهما وسر لذتهما الباقية فى هذه الحياة

.... يالله ما أبهى المرأة فى ثياب العرس ، إنها لملكة على عرش ، أنها الأمل فى السعادة ، أنها الإيمان بالبقاء والخلود ، أن صورتها فى ثياب العرس يتوج رأسها أكليل من زهر الليمون ، تجر ذيول العظمة والكبرياء ، لهى صورة ماثلة للجلال والجمال يدخرها الخيال إلى أبعد زمن من العمر .... وكانت إشراقة الفرح ترتسم فى عيون سكان القرية تلتهم العروس إلتهاما وهى تهبط الدرج بتؤدة وتأن متكأة على ذراعي ، وحناجر النسوة تطلق الزغاريد مجلجلة تباعاً وأيديهن ترمينا بالملح .....

ودرجت بنا السيارة تمشى الهوينا فى طريق القاهرة

* * *

كنت وأنا فى السيارة أنظر إلى ملاحة وجه عروسى ، وبهاء رونقها ولا أتكلم ، فى حين كانت هى مطرقة

كفى بكفها ، فلما اجتزنا جسر «طنطا» وخلفنا وراءنا أنوار المدينة وصرنا فى قلب الحقول المنبسطة على جانبى الطريق ، رأيتها تنحنى على يدى وتطبع عليها قبلة ريانة والتفتت تقول بصوت رخيم منخفض لا يصل إلى أذن السائق ، لقد أكرمتنى كثيراً يا سيدى العزيز وأشبعت ما تصبو إليه نفس فتاة مثلى ، فأشكرك أطيب الشكر ، إلا أنه بقى لى أمنية أخيرة أتوسل إليك أن تحققها .

قلت متلهفا أى أمنية هى ؟

قالت أمنيتى ، وأرجوك أن لا تضحك منى ، هى أن تحملنى على ذراعيك فأجتاز عتبة دارك وأنا فى ثوب الزفاف الطاهر هذا ، وبذلك تتحقق كل رغباتى .

قلت : ما الحكمة فى ذلك ؟

قالت : ليس هناك حكمة . بل خرافة مستحبة ، تعنى أنى لن أجتاز عتبة دارك مرة ثانية إلا محمولة على الأكف فى الكفن الأبيض الطاهر إلى مثواى الأخير .

قلت معترضا : أتدخلين البيت يوم الزفاف محمولة

ولا تخرجين منه إلا يوم الدفن ؟

قالت سأخرج بصحبتك ولن أخرج منه إلا برفقتك

قلت : متى ؟

قالت : بين الموعدين طوال العمر

قلت : أحمد الله على أنك من الوزن الخفيف ولكن أجرة الحمال كم تدفعين أجرة الحملة ؟

فابتسمت وقالت دفع الأجر بعد إتمام العمل .

.... وقف خدم الدارة فى ثيابهم النظيفة ووجوههم الباسمة يستقبلون العروسين ... وترجلنا من السيارة فاذا بعروسى تلتفت إلى الخدم تحييهم تحية السلام ثم دعت أكبرهم سنا ونفحته بمقدار من المال وقالت إنه لزوجاتهم وأولادهم . فاذا بهم يتقدمون جميعا يلثمون طرف ثوبها

شكرت الخدم أصحابى ودعوتهم إلى الإنصراف على أن يعودوا إلى عملهم فى صباح اليوم التالى إلا العم « عثمان » حارس الباب

...... وحملتها بيدى وأبيت إلا إصعادها إلى

غرفة النوم فى الطابق العالى محمولة على ذراعى ، ولما أنزلتها كنت ألهث بينما كانت هى مستغرقة فى الضحك .

قلت لها وكأنى أخبىء تعبى من حملى غير المتعب ، هذه غرفة نومك وإلى جانبها غرفة زينتك وصوان ثيابك أما أنا فذاهب إلى غرفتى أتخفف من ثياب استنفدت أغراضها ، ورحت فنضوت ثيابا أسميناها « رسمية » ولبست منامة لم ألبس نظيرها من قبل ، ووقفت أمام المرآة أسرح ما تشعث من شعرى فاذا بخيالى ينسرح فى أجواء الأمل والحب والسعادة ، لقد أطلقت له أعنته يصور لى الواقع بصور زاهية ، ويجسم لى تماثيل المستقبل . ولم أنتبه إلى بصرى يموّه على بصيرتى إلا حين رأيت شعرات بيضاء تماوج فى لمتى فأجفلتنى ، ولكن سرعان ما ارتسمت على جانب فمى إبتسامة صفراء فقلت ، متى كان الرجال أقل مغالطة من النساء فى السن ؟

ولم ينقذنى من تداعى أفكارى ، واختلاط تصوراتى وانفعالات نفسى رهبة من الزمن ، سوى انطفاء النور فى غرفة عروسى ! ؟

استيقظت من إغماءة الذهن ، وهرولت مسرعا نحو الغرفة فأشعلت النور وإذا بى أجد عروسى جالسة فى ثياب العرس فى مقعد متكأة كملكة على عرش لا ينقصها سوى وصيفات يحففن بها كالهالة وقد صوبت إلى نظرة عتاب رقيقة فأدركت مبلغ تقصيرى فى تطبيق قواعد البروتوكول، ومقدار الوقت التى استغرقته انسراحتى فتقدمت أعتذر منها وأساعدها على نزع خمارها الشفاف وفك أزرار الثوب من عراها ، وقد قبلت جبينها وانصرفت تاركا إياها تنضو وترتدى ما تحب من الثياب .

وجاءت تخطر فى مشيتها ترفل فى ثوب مسربل على قامتها ، تزين صدرها بعقد الخطوبة ، ورأسها بأكليل الزهر وقالت أرنى عش سعادتنا .

قلت أليس الأفضل أن نبدأ بزيارة غرفة المائدة لأنى أكاد أموت هفوتا ، هيا « ياصفائى » إلى غرفة الطعام لأنى جائع عطشان ، مشتاق وولهان ، وعقدت ذراعى بذراعها وهبطنا الدرج إلى غرفة المائدة .

فاحت روائح الند والبخور مختلطة بعبق الزهر الذى يزين جوانب غرفة المائدة ، جلست وأجلست عروسى إلى جانبى وأشرت بأن تمد يدها .

قالت : وهى تبتسم : من أين نبدأ ؟

قلت من الطيبات .

قالت : لم لا نبدأ من الطيبين ؟

أعجبتنى تلك التورية اللطيفة فقمت فقبلتها ودعوت لها بالهناءة والسعادة ، وشرعنا نلتهم مافى الأطباق التهاما لأنا كنا جائعين

التفت إلى جانب المائدة فرأيت إناء مملوءاً بالثلج تتوسد فيه زجاجة من الشمبانيا فأدنيته منى ، فقبضت على عنق الزجاجة وفضضت خاتمها، فانتفض وهو يصرخ ، فتنفست فأرعدت فأزبدت، فملأت كأسين من رحيقها السائل الذهبى، فقدمت الواحدة لعروسى وتناولت الثانية أشرب نخب سعادتنا .

قالت : تمهل قليلا ما هذا؟

قلت : شمبانيا ، ألا تعرفين الشمبانيا؟

قالت : لم يسمع هذا الاسم فى « قحافة » ولكنى عرفته فى الكتب

قلت : أتقرأين الكتب ؟

فهزت رأسها بالايجاب

سكت هنيهة ..... قلت فلنشرب إذاً نخب العروسين

قالت : سأفعل كل ما يطيب لزوجى أن أفعله وأدنت الكأس من شفتيها وغبّت غبة كبيرة ثم ردتها وهى تتلمّظ وتتساءل ماهذا الطعم المزّ ، بل الحامض ؟

قلت : هذا عصير العنب مخمّراً ومعتّقاً منذ زمن بعيد

قالت : أَليس العنب الطازج ألذ وأطعم ؟

وعدنا نأكل من هذا الطبق ومن ذاك حتى امتلأت معدتانا ولكن مزازة الشمبانيا اللذيذة فكرتنا بكعكة الفرح فقامت عروسى فقطعتها وأخذت أيدينا تمتد إلى أطباق الحلوى تنوش منها بغير تمهل ونرتشف الكأس ونتمززها على مهل

شعرت بدبيب فى مفاصلى ، واضطرام فى وجهى ، واشتعال فى دمى ، توهمت أن فى ارتشاف الكئوس

ما يخمد حدة هذا الوهج فشربت شرب الظامىء

تطلعت إلى خدّى عروسى فإذا بهما مضرجان بحمرة قانية ، وإلى عينيها تبعثان أشعة من نور أخّاذ ، وإلى عنقها يميل فيستند على كتفها ، وسمعتها تسابقنى فى الكلام فتقول ما يضحكنى ، وتقهقه وتضحك مما أقول ، وأحسست رغبة فى الكلام فكان يعصانى لسانى ، وشعرت بالأفكار تتهافت وتتزاحم فلا أستطيع لمّها وضمها ولا تبيانها فى وضوح

قالت إنها مثقلة الجفنين فقلت إنى نعسان . قالت هيا إلى النوم ، قلت ما أشد رغبتى فيه ، ومشينا متحاملين متثاقلين ، نترنح متمايلين ، ألف خصرها بذراعى ، وتتكىء بذراعيها ورأسها على كتفى ، وصعدنا الدرج نجرّ سوقنا جرا ونحن نثرثر وارتمينا فى فراش واحد

يا لله ياصاحبى من ذاك الفراش ، أبجمر الغضا محشو أم بشوك القتاد ؟ أم تراه مركبا فيه لولب يديره مرة إلى أعلى ومرة إلى أسفل . . . . . ونسيت أنى عريس .

لا أدرى متى تعطل لولب السرير ، ولا متى سكنت

ثرثرتى ، ولا كيف السبيل إلى جرعة ماء أبل بها لسانى الناشف ، وحلقى الجاف ، وجوفى الملتهب ، وإلى ذلك النقر المتواصل فى صدغى

وتحاملت على نفسى أنشد الثلاجة فشربت ولم أرتو ولم أنس قرص الاسبرين المسكن للصداع

وعدت إلى فراشى ... ماذا ؟ ... يا إلهى ... أعروسى إلى جانبى فى فراشى ؟ اللعنة على خمير العنب المعتق ، وعلى أوهام النشوة

يالعروسى المسكينة ، وددت أن أفتح لها الليلة قلبى على مصراعيه فإذا بى أنطرح بالقرب منها ، فلا هى لى جنة عدن أنعم بخمائلها وغياضها وأزهارها وثمارها أعب من كوثرها ، ولا أنا فى جهنم أصطلى بلظاها وأكتوى بنارها ، بل كنت مرتميا عند الاعراف يفصلنى عنها سور أى سور ؟!!

دنوت منها ... لقد غلبت حموضة أنفاسها المخمورة على طيبها وعطرها ، فتراجعت عنها ، فتركتها فى سريرها تتخلص من خمارها بالنوم . وعدت أستلقى فى فراشى أجدد بالنوم القدرة على الحياة

لقد استحيت من زوجي حين أَصبحت... ورأيتها خزيانة تحييني تحية الصباح وقد قرب الظهر ، وراحت تعتذر من نومة الضحى ، وقد نسيت أو تناسيت ماوقع ليلة أمس

أقول لك ياصاحبي أني لزمت البيت خمسة أيام ، إلا ساعات نزهة المساء كنت أصحب زوجتي معي إلى الهرم أو إلى طريق السويس في الصحراء ولكني ، برغم رفع الكلفة بيني و بينها ، لم أكن أجرأ على الجلوس معها في مينا هاوس أو سميراميس مثلا ، مخافة أن تقترف هفوة تناقض قواعد البروتوكول

أردت تذكير زوجتي بقرب موعد زيارة أبويها ، فقالت ما قصدك من التذكير ؟ قلت قصدي إكرام إنسانين تفضلا فوهباني أثمن قنية في الوجود أجلستها على عرش قلبي ، قالت : إني أتغاضى عن القِنْية وشاريها وواهبها ، ولكني أود معرفة المخلوق الذي طرق باب قلبك قبلي وهل ما زال حيا فيه ؟

توهمت في هذه اللحظة أن صفحات الماضي بسطورها

العريضة ، ودفاتر المذكرات العشرة ، وحوادثها الواقعة وشخصها الحى ، وصورة الدارة القديمة تضعها زوجتى كلها أمام عينى فقلت متجلدا ما معنى هذا السؤال ؟

قالت وهى تزمّ شفتها سنترك هذا الموضـــوع إلى ما بعد انتهاء زيارة والدىّ .

قلت سنقحم إذن على الموضوع استجوابا آخر وهو : هل أنت متعلمة أو غير متعلمة ؟

ضحكت طويلا ، وقالت : أما كان الأجدر بك طرح هذا السؤال يوم شرفتنا بالزيارة الأولى فى بيت أبى ؟

قلت كان الواجب يقضى بذلك ، ولكن جاذبيتك وصمتك من ناحية ، وتفانى أمك فى عمل ما يرضينى من ناحية أخرى ، ثم طيبة قلب أبيك ، وثورة نفسه ، وسطوته ، وحملته على الجيل الحاضر ، كل هذه العوامل متجمعة كانت تلاحقنى وتتناشنى ، ولكنك أنت أنت بما فيك من هدوء نفس ، وحلاوة نظرة ، وعزوبة صوت أنسيتنى أَهم أغراضى وأقدس مبدأ لى فى الزواج ، وقد

تنازلت عنها تنازلا مطلقا ورضيت مكتفيا بك ، بما فيك ، لأنك أنت أنت

قالت وقد دنت منى وألقت كفها على كتفى ، ألا قل لى بحياتى عليك ، ما كان رأيك فى الزواج ، وما هو مبدأك ذاك فيه ؟

تعملت عنجهية الزوج صاحب السطوة وزويت مابين حاجبى وقلت ، سنترك الموضوع إلى ما بعد زيارة والديك لنا

قالت وقد نظرت إلى بطرف فاتر أتنسى أن التعجل وحب الاستطلاع هما فى مقدمة طبيعة المرأة ؟

قلت : ألا تسمعين قول الحكيم « العقل فى الصبر »

قالت : الصبر مرّ

فقلت : المعابثة حلوة

* * *

حضر حمى وحماتى لزيارتنا فاستقبلتهما « صفاء » بالترحيب وكذلك احتفيت أنا بهما ، وبينما كنت أنا وحمى نشرب القهوة كانت « صفاء » تطلع أمها على كل غرفة بالبيت . وكل طرفة من أوان وصور وتماثيل ، ورأيتهما تجوبان حديقة

الدارة وحظيرة الدواجن وتقفان طويلا قرب أصص الأزهار النادرة .

فرحة الأم بزواج ابنتها لا تضارعه فرحة ولا تقارن بفرح الأب ، وإحساس الأم بسعادة ابنتها يكسبها عزة وقوة ثم ميلا إلى زوج ابنتها ، أما العم فيعتز بصهره ويفاخر به ، وقد تبينت ذلك فى إشراق وجه حماتى وابتسامتها العريضة ، ومن الدعاء لى ، ومن عدم تمهلها فى الاعتراف بفضل الله على ابنتها التى سعدت بزوج طيب مثلى ، وكانت ، مدة إقامتها بيننا لا تتحرج إلا من خادم المائدة ، ولا تعترض إلا على وجود هذا الخلاسى بيننا ينصت إلى حديثنا ، ويراقب أقوالنا وأعمالنا ، ويطلع على أسرار البيت وقد ينقلها إلى زملائه من الخدم وإلى مَن يعرف مِن الناس ، وقد تعهدت بإحضار فتاة خادمة ريفية تنوب منابه فى عمله ، وسكتت عن زميله الطاهى الخلاسى أيضا لأن مقره « البدروم » وقد لامت ابنتها على ترك مؤونة البيت ومفتاح « الكرار » بيد الطاهى لا تحت إشراف سيدة البيت . أما حمى فلم يكن

يلتفت إلى شيء من ذلك، بل كان همه الذهاب فى الضحى إلى زيارة زملاء له عرفهم منذ حادثة «الوردانى» و «بطرس» ثم التنقل بين «جروبى» و «كازينو الأوبرا» يتسقط الأخبار ، وأكاد أقول من مصادرها، ويعود إلى البيت فيرويها رواية الواقف على بواطن الأمور و خفاياها

كنت ألتفت لنقد حماتى وملاحظاتها على ابنتها ، وأصغى لحديث حمى، وأنصت إلى سماع أخباره ، ولا أعلق عليها مخافة أن تندّ كلمة منى تكون قابلة للتأويل وفاتحة لنقاش أتحاشاه ولا أريده

كان إحساسى بوجود حمى وحماتى عندنا إحساسا عميقا بأنهما والداى، وإنى وزوجتى فى رعايتهما وكنفهما، ومن عجب أن زوجتى شعرت ببعض قيود تقيد حريتها ، وبعض تصرفات شكلية بسيطة تحد من استقلالها ، والأعجب من هذا أن حماتى استشعرت إحساس ابنتها ولذلك لم تطـــل مدة إقامتها معنا .... وقد عادا إلى «قحافة» .

وما كادت السيارة التى حملت حموى إلى ضيعتهما تبتعد عن البيت حتى رأيت زوجتى ترمقنى بنظرتها الأخاذة وتقول بصوتها اللين الناعم أحسب « أن الصبر أخذ يضيق بالعقل »

قلت : ماذا تعنين ؟

قالت : أعنى الفتاة الأولى التى فتحت باب هذا، ولا أريد معرفة من صال فيه وجال بعدها ، وأشارت بأصبعها إلى الجهة اليسرى من صدرى

ولما كنت ميالا بطبيعتى إلى المعابثة والمماجنة وكنت قد أتممت معدات السفر ، قلت أجيبها على سؤالها بصوت نبراته جافة، هذا موضوع رصين يحسن بحثه حين نستقر فى مصيفنا فى اعالى جبال لبنان

قالت والدلال يرتسم فى قسماتها وحركاتها ، ذلك ما كنت أنتظره منك ، التأجيل ثم التطويل ، أما الآن فقل لى بربك كيف السبيل الى جبال لبنان ؟ اذا كان السفر بالطائرة فانى أخشى السقوط ، أو بالباخرة فانى أموت خوفا من ركوب البحر ومن أن أكون زادا شهيا للسمك

قلت : ألم تعد فعل ما أفعل ؟

قالت : بلى

قلت : سواء أكان سفرنا بالطائرة أم بالباخرة فإنى سأكون إلى جانبك ، أعنى بك أولا ثم بنفسى .

قالت : وهى تتعمل الجد ، أريد معرفة بواب قلبك وهل بقى المفتاح معه حين ولىّ ؟

قلت : وقد قلدتها فى موقف الجدى المتكلف، قضية البواب مؤجلة إلى جلسة تعقد فى أوائل شهر يوليو فى أعالى لبنان .

قالت : وقد اتخذت وضعة الطفل الحردان ونزعته وتحديه ، إذا كنت لا تريد الاعتراف بماضيك فأنا الذى أبدأ به ، لأن لى ماضياً ولا بد من إطلاعك عليه ، لأن ذلك أمر واجب على ، أتريدنى يازوجى العزيز أن أبدأ اعترافاتى ؟

قلت بصوت الضيق الصبر ونبراته الرنانة هذا موضوع يحسن إضافته إلى ما سبقه من مواضيع مؤجل بحثها إلى حين نصل إلى لبنان . . .

إنثنت غضبى وراحت

قلت للخادم أن يعدّ لى فنجانا من القهوة

لدخان اللفائف ياصاحبى روح كما أن للقهوة روحا ، تناجيان الفكر وتطلقان الذهن فى رحاب الكون ترسمان للمخيلة صوراً مختلفة الأوضاع والأحجام والإبعاد والألوان والأطياف ، وكنت أنظر إلى حلقات الدخان تنداح وتتلاشى وكأنى بها قبل تلاشيها كانت تردد معى ما كنت سمعت من أقوال زوجتى المعابثة المداعبة يرددها ذهنى « زوجتك لها ماض . . . زوجتك تريد الاعتراف . . . . زوجتك ترى الافضاء بماضيها إلى زوجها . . . . . » لقد رددت هذه العبارات فى ذهنى عشرات المرات وأخيرا وقد مللت من التكرار سألت نفسى ماذا ترى يكون ماضى فتاة بكر عاشت فى ضيعة متواضعة بعيدة عن المجتمع ؟أَرحت ذهنى من ترديدات لا تجدى سوى تمهد السبيل للاخيلة المزعجة ، والتخمينات المقلقة ، التى تجعل الرجل أكثر طاعة وأقوى فضولا من المرأة المحبة للاستطلاع .

توهمت أن أفكارى غير مبلورة ، وأن قدحا من الشراب يساعد على صقلها . . . وما كدت أرطب

جوفى بالقدح الأول وأقدح زناد فكرى بالثانى حتى رأيت زوجتى مقبله مرتدية الثوب الفضفاض الذى تستريح عنى إلى مرآه فنهضت للقائها

حيتنى بانحناءة وهى ترفع طرفى ثوبها ، وتقدمت خطوة، وقد شمخت برأسها وقالت « سيدى أنا « صفاء» زوجة الدكتور. . . الحائز على الدرجة العلمية فى جامعة فى ألمانيا . . . ودرجة دكتوراه فى الآداب من جامعة كذا فى انجلترا . . . ودرجة كذا فى الفنون من معهد كذا فى فرنسا . . . والأستاذ فى علم الآثار بجامعة .... والمحاضر فى الجامعة الشعبية فى الأدب المقارن بين حتشبسوت ونازلى وبين ... ووضعت أصابعها على جبهتها تتذكر ... فنهضت واقفاً فمددت أصابع كفى اليمنى فلصقتها على فمها بقصد إسكاتها وقلت: خل عنك هذا البحث غير الموضوعى الآن وابقه إلى أعالى لبنان . ضحكت من دورها التمثيلى وضحكت معها ونحن كطفلين

وقلت لها ، فى الساعة العاشرة من صباح الغد تنقلنا طيارة

إلى لبنان فنتناول طعام الظهر فى بيروت والعشاء فى «أهدن» عند سفح الأرز الخالد

قالت : ما أشد لهفى على «جبران» ورغبتى فى الوقوف على ضريحه وزيارة متحف رسومه .

قلت : هل قرات كتب جبران ؟

قالت : أجل وقرأت مؤلفات ميخائيل نعيمه المستقدس أيضا

إسمع ياصاحبى ، إن العين الباصرة واحدة فى كل زمان ولكن علام يختلف نظرها إلى الأشخاص والأشياء فى الليل عن النهار ؟ واللسان الناطق واحد ، كذلك مخارج الصوت فلم يترقق ويتناعم فى الليل ويتخاشن ويستجش فى النهار ؟ ثم الاحساس لم ترهفه الظلمة ولا يتبالد ويتخدر إلا فى النهار ؟ ألأنها عين ولسان وإحساس إنسان ؟

وقال : الحرب الحيوانية هى السبيل إلى أحياء الحياة ، والقتال هو الوسيلة إلى تمهيد طريق الحياة ، والعراك والدفع والجذب والعض واللثم إنما هى أدوات حرب الحياة لبقاء

الحياة ،أليس عجيبا أن يتسلح الإنسان بسلاح الحيوان؟

هكذا قضيت وزوجتى ليلتنا فى حرب الحياة قبل وداع مصر هربا من حرها الشديد فى شهور الصيف ؟!!

يقولون ياصاحبى أن الأرض تدور ، أو هكذا تعلمنا فى المدرسة ، وفى الواقع أنى لم أرها تدور ولا شعرت بها قط ، ولكن ظل الشمس هو الذى جعلنى أقدر دورانها، ولم أر قطبها الذى تدور عليه إلا ساعة كنت فى الطائرة وهى محلقة ، لقد رأيت الطائرة كأنها ثابتة فى مكانها، ورأيت الأرض تدور من حولها أو هكذا خيّل إلى !!!

ومن ظريف ما أرويه فى هذا الصدد ، هو أن زوجتى سألتنى قائلة : لقد أحسست بقيام الطائرة وبإرتفاعها ولكنى لا أحس الآن بسيرها ولا أشعر بأنها تتقدم ، فى هذه اللحظة خطرت المضيفة الحلوة بقدّها الأهيف تحمل طبقا من الشطائر وآخر من الحلوى فتناولنا منها ما يكفينا ثم أخذنا نحتسى القهوة ونثرثر

قلت لزوجتى أن تطل من النافذة لتشاهد جبال لبنان

الخضراء، فلما أَطلت ورأت الأرض قالت: أحس الآن فقط أن الارض تدور هذا « فعل السرعة » وقد سرّت بأننا قطعنا المسافة الطويلة بين مصر ولبنان فى وقت قليل، وفى راحة لم يشبها تعثر فى فجوة أو مطبّ فى الهواء ... وقد بلغنا بيروت...

إنى لأحمد الله على أن إقامتنا فى تلك المدينة القائظة لم تطل، بل حملتنا سيارة إلى نهر الكلب نطعم عند ضفته نرتوى من مائه النقى العذب

كثيرة ياصاحبى الأقوال التى ترددها الألسن على اعتبار أنها حقائق ناصعة . والأكثر منها الاستشهاد ببيت من الشعر كأنه من الآيات البينات ، بيد أن وقفة واحدة عند هذه المأثورات كفيلة بتعريتها ونزع قدسيتها عنها، ومن هذه المأثورات غير الشعرية كلمة « شهر العسل » وفى اعتقادى أن حلاوة الزواج ليست فى اليوم الأول ولا فى الأسبوع أو الشهر الأول، بل فى ارتفاع الكلفة بين الزوجين ، وفى السعى الخفى إلى تعرف المشارب وتفهم الميول ، ثم البدء فى توثيق روابط الزواج

المقدس لبقاء النسل بلفتة قلب الى لفتة قلب لبناء الأسرة ، وقد اندمجت روحي بروح زوجتى ونحن فى لبنان ، إذ كنا طوال الوقت جنبا إلى جنب

فى عشية أحد الأيام وقد أخذت الشمس تلملم أشعتها من على رؤس الجبال المكسوّة بأشجار الارز، ولم يبق سوى الناصل من ألوانها ، وقد بدت العتمة تنشر جناحيها وتمد رواقها الظليل على الناس فتريح العيون والنفوس ، فى تلك الساعة من الساعات الساحرة فى جوّ لبنان وقد كنت منتشيا لا من رحيق الرفيق الحبيب ، ولا من تيه الشمس ودلالها وقت الغروب فحسب . بل كنت متخدرا من تدخين نارجيلة تقسر مداعب أنفاسها على انجذاب روحانى وشعور رفاف رقيق بمعانى سحر المرأة وفتنة الطبيعة . فى هـــذه اللحظة الصوفية . مالت زوجتى نحوى تقول : أَحس بنشوة من نسائم الاشجار العطرة وبانشراح يدعوانى إلى التحدث اليك عن ماضى فهل لك أن تصغى إلى؟

قلت : الاعتراف الموعود ؟

قالت أجل الاعتراف لك بماضي ، وقد حدّقت فيَ كأنها تقرأ في عينيَ سطور معرفة «الاعتراف» وترى وقعه في نفسي .

فتحت عيني وبسطت قسمات وجهي للمفاجأة وقلت : الاعتراف ... الاعتراف الخطير ؟ ... لاشك عندي أن اعترافك خطير جدا .. هات اعترافك ... إني جد مشوق لسماع الاعتراف ولكن ... ولكني أحمد الله أولا على أن ليس في قرية « أهدن » معقل الموارنة مأذون شرعي ؟!! ثم استبدلت لهجة الاستهجان المفتعلة بنبرة الأستاذ النقادة وقلت : كنت أحسب أن خاصية حب الالتفات إلى الوراء ، والرجوع إلى الماضي واجترار أحداثه وقفاً على رجال السياسة المحترفين دون النساء

قالت : وقد ثنت عنقها وأرخت جفنيها ، وأحنت رأسها في استحياء ، أرجو يازوجي ألا تضحك مني ، لأن ليس الاعتراف بذاته هو الغاية ، بل المتقدم عليه هو الاقرار بجميلك أولا ، فقد جعلتني أكسب الثقة بك وقد

وضعتها بجعلتها فيك ، وأنى لأعتز بها اعتزاز الغنى بغناه والقوى بقواه ، لقد أردت بكلمة إعتراف محوَ ما قد جال فى خاطرك وطاف فى مخيلتك من صور لنزوات الفتيات ونزعات الطائشات إبان اجتيازهن مرحلة المراهقة وأعصارها الجارف فى الوسط الجامعى وهو يجمع بين الجنسين دون أن يحسب للاختلاط حسابا .

قلت ما شأن الجامعة وطالباتها ؟

قالت ولم تجب على سؤالى وهى مطمئنة وقد وضعت كفها فى كفى : أرجوك مرة ثانية إستبعاد سوء الظن عن خاطرك . لأنى تعلمت من الأمريكان فى جامعتهم بالقاهرة معانى الحرية قولا وفعلا ، والاعتداد بالنفس حسيا ومعنويا

بلعت ريقى حين سمعتها تقول أنها تعلمت فى الجامعة ، بيد أنى كنت راغباً فى الزواج من ريفية سليمة الفطرة ، وأيقنت أننى نقضت قرارى فى الزواج ، وناقضت نفسى فى مبادئى ، وألقيت بها لأحكام القدر ، فيا ويلى منه إذا ضحك منى !!

قالت مستطردة : كنت القروية الوحيدة ، أو بعبارة أخرى كنت الطالبة الوحيدة غير القاهرية فى الجامعة الأمريكية جاءت لطلب العلم مدفوعة إلى طلبه لذاته برغبة مستمدة من نفسى إقتداء بوالدى المحب للمطالعة والدرس ، ومضيت فى طريق كان ينيره الأساتذة بمحاضراتهم ، وفى انكبابى على مطالعة الكتب التى كانوا يرشدوننا إليها ، ولم أكن أبالى إذا كنت الناجحة الوحيدة بين الفتيات الطالبات أترابى ، أو المتفوقة على الطلاب أقرانى وأندادى ، لأنى كما قلت كنت مأخوذة بحب العلم للعلم .

سألنى مرة زميل لى أن أشرح له نظرية كنت أناقش الأستاذ المدرس فيها ففعلت . وعاد فسألنى مرة ثانية فثالثة أن نتناقش فى دروسنا وفيما نقرأ ، مشيت أشواطا طويلة فى المذاكرة والنقاش والبحث مع ذلك الشاب داخل أسوار الجامعة ، ولم أمانع فى انضمام أكثر من طالب من زملائنا إلى حلقتنا التى كنا نعقدها فى حديقة

الجامعة ، ولم ألتفت إلى تحرصات الفتيات زميلاتى فى الاختلاط بالطلاب .

ومن عجب أنى صرت على غير قصد ألتفت ، بل أخذت أنظر عن قصد إلى هذا الطالب أو أراقب ذاك ، أجد فى الواحد ميلا إلى سماع النقاش والحوار ، بينما الثانى يشترك فيه ، أما الثالث فقد كان يطيب له الانحراف عن الموضوع ليثير مسألة أخرى أو يظهر شخصيته كمخلوق له خطر وشأن وكذلك كان فيهم ...

فقلت أقاطعها شأن الأستاذ الضيق الصدر ، يوجد فيهم أيضا من يحب إرضاء رغبته فى الكلام ، وفيهم من يؤثر التقاط المعرفة بالسماع وتفهمها بالعين ومن العين . ومن التجاوب النفسانى . إلى آخر ما هنالك من طبائع أعرفها . . . . ثم ماذا ؟

قالت تتمم كلامها كأنى لم أعترض على تبسطها ، كان لكل طالب انسياق داخلى يدفعه فى طريق واحد أو يزجّه فى عباب معمعة لا تتبدل إلا بوعى وإرادة ،

وكنت أرى طالبا لا ينفك ينظر إلى نظرة محدق لم أتبين معنى جوعها آنذاك، وكان بصرى يطرف كلما وقع على بصره

سألت مرة ذلك الطالب عن معنى تحديقه فأجاب كالمهموم، أحسّ عندما أسمعك كأنى مأخوذ أو منجذب بقوة لا مناص لى من الاستسلام اليها ، أو كأنى ملق فى صحراء من السهوم وركود الذهن ، فأرى وكأنى لا أرى ، وأسمع وكأنى لا أسمع ، وعلى الجملة أنى أكون فى شبه أغماء ذهنى

قلت أسأله معنى هذا الوصف المنحرف الخالى من المنطق فأجاب : أتطلبين منطقا سليما من ذهن راكد؟ ولشد ما ثارت دهشتى عند ما رغب إلى ذلك الشاب بعينه الابتعاد عن رفاق الحلقة لأنه يوثرنى لنفسة ويمنينى بالزواج

لم يكن ذلك الطالب من المتفوقين على أقرانه ، ولا من المنكبين على المطالعة ، ولا ممن ينتظرهم المستقبل الزاهر ، وكان لا محيد له عن ذلك — هذا إذا نال شهادة الماجستر — من شق طريقه فى الحياة معتمداً على نفسه ، بل كان

ملزماً بالبر بوالديه يفيهما بعض مايقرضانه من مال شيخوختهما ،
وقد تبين لى فيما بعد ، أن ذلك الطالب المسكين لم يكن الوحيد
بين زملاء الحلبة ممن أراد الاستئثار بى ، بل رغب إلى كل
واحد منهم فيما كان رغب فيه زميله ، وأنى كنت محور تلك
الدائرة وروح تلك الحلقة ، وأن العلم والمعرفة ما كانا سوى
وسيلة إلى صلة الرجل بالأنثى ، وأن ما من واحد من أولئك
الرفاق كان أحسن حالا ، وأوفر مالا ، وأبعد نظرا فى مواجهة
الحياة وتحمل مسئوليتها من رفيقه

قلت وقد رفعت يدى كإشارة للاعتراض كشأن الطلاب
عند سؤال المعلم ، لقد قضيت فى المقدمة على الجملة من المريدين
والراغبين دفعة واحدة ، ولكن ألم يكن بين أولئك المناحيس
من كان يستأهل عطف الآنسة ورضاها؟

فأجابت : كنت أود أن أحقق رغبة واحد من أولئك
الفتيان الأصحاء أتمم به غايتى فى الوجود ، ولكن التمنى ليس
الحقيقة واستطردت تقول :

شعرت بميل نحو واحد من الطلبة فانجذبت إليه ، فتقربت
منه ، فتصاحبنا ، وإذا بى أحس أنى أحمله ما لا طاقة له باحتماله

وأرهقه بثمن مقعد فى السينما لا قدرة له عليه ، وأشغله عن مواصلة دروسه واتباع مطالعاته . أخذت أَشعر بانحراف ذهنى وصدوف عن العلم ، وبالاستغراق فى السهوم الطويل والركود المتواصل . لقد فتر نشاطى ، وكلّت ذاكرتى ، وخبَت جذوة حماسى فى النقاش والمحاورة والدرس ، وغدوت لا أفكر فى شىء ، ولا أَرى أَمام عينى إلا خيال ذلك الشاب الرصين الذى صرفنى بسلام بكلمة واحدة لا أنساها . . . . وقد أيقنت بعد تحليل ذاتى قرأت سطوره فى صفحات نفسى ، أن أمرى سيؤول إلى الافتضاح ، وسرى سينكشف أمام أَساتذتى وزميلاتى . وأنى ضعيفة لا أقوى على مقاومة تيارات الشباب الجارفة ولا الهروب من هذه العاصفة التى عصفت بى . لذلك عقد النية على ترك الجامعة والعودة إلى بيت أبى ، لا أريم حتى أَموت أو أنقل إلى بيت الزوجية .

عدت إِلى البيت دون أن أودع أَحداً من زملائى ، ولم أعبأ بمشيئة أَبى الذى أراد أَن يصيرنى مدرّسة أو مفتشة بوزارة المعارف . وقد أدركت أنى كنت مخطئة فى سلوكى

الطريق الذى يؤدى إلى تحقيق غايتى ولكن التيار كان عاصفاً والارادة متخاذلة ·

صفقت تصفيق الاستحسان وقمت فشكرت «الأستاذة» المحاضرة على حسن بيانهـــا ، ولكنها استمهلتنى حتى تم كلامها الذى لا يعدو أن يكون مقدمة « للاعتراف » فقاطعتها معتذراً بدنو وقت الطعام . وقد أدركت ان حكايتها هى حكاية ثورة الشباب وقد اجتازتها بالهرب منها إلى العزلة .

وبينما كنا جالسين حول مائده الطعام كانت زوجتى تنقد كالعصفور طعامها من هذا الطبق لقمة ، ومن ذاك لقمة أخرى، ولكن شهوة الكلام كانت حوّامة حول شفتيها متوثبة للاعتراف فسألتها وهى تنقر الأطباق بشوكتها أَجرادة أنت أم نحلة أيتها الشيطانة المتفلسفة ؟

قالت وقد لقيت منفذاً للكلام ، كل فتاة جرادة ونحلة وبالعكس . لأن القفز والتطلع والفضول والتذوق هى أخلاق أصيلة فى طبيعة المرأة يستحيل اجتنابها . وأن الفتاة متى فرغت من تمثيل دور الجرادة تتحول إلى نحلة تأخذ فى بناء وكرها وتدأب فى تنظيمه، تملأ خلاياه بأولادها وهم شهد الحياة .

قلت : أفى ميدان معركة طعام نحن أم فى حلبة معركه ذهنية ؟

قالت : نحن فى ميدان تعارف فاتنا الصولان فى رحابه قبل الزواج ، أليست شهور الخطبة قد جعلت للتعارف ؟ وأردفت تقول « أعدك بان سأجعل بيتك مأوى للراحة والغبطة ترفرف فوقه ألوية المحبة والسلام » فقلت أقلد صوتها الأغن « لقد أدرك شهر زاد الصباح وسكتت عن الكلام المباح » وأخذتها من يدها إلى غرفة النوم فكانت تحتج وتقول أنها ستبوح لى الليلة بكل شىء ولا يكون شىء مكتوم عنى بعد الليلة .

تجلت زوجتى فى اليوم التالى بنضارة المرأة الناضجة وتبدت كشجرة التفاح فى بدء فصل الربيع ، تتمايل أغصانها اللدنة، ويفوح عطر أزاهيرها ، وتبتسم براعيمها ابتسامة مشرقة للحياة . تضحك لى حيثما ملت وتدنو منى إذا ابتعدت عنها ... فلما دنا وقت العشاء وجلسنا حول المائدة قالت : أيطيب لمولاى شهريار سماع بقية حكايتى ؟

قلت : أحكاية ليلة أم ألف ليلة ؟

قالت : هى حكاية نكفّر بها عن أيام الخطبة وقد تبخرت أخيلتها الجميلة بفعل التزمت والتمسك بقديم العادات

قلت : لقد اختزلنا تلك المرحلة وعبرنا نهر الخيال فبلغنا شاطىء الحقيقة أليس كذلك ؟

قالت : بلى وقد أشرق وجهها وخفضت طرفها .

قلت : لتتكلم شهر زاد فان شهريار مصغ إليها .

قالت : أنى أحمد لشهر زاد تلك المرأة البارعة التى عرفت كيف تسوّى بين العاطفة والعقل

قلت : لاخوف عليك منى فلست بناقم على وافيات العهد من بنات جنسك .

قالت : أنت أول قاض حكم للمرأة بالوفاء . . وأن محور حكايتى يدور حول الوفاء فقمنا ، فجلسنا فى الشرفة المطلة على الوادى الساجى على ضوء القمر فقالت « عاد شاب كان يعمل فى الاسماعيلة مع الإنجليز فأحدثت عودته فى قريته التى تجاور قريتنا حركة غير عادية وفتحت بابا للكلام عند الفتيات

والنساء كما عند الرجال ايضاً ، وما لبث الحديث أن تركز في بيتنا واستقر فيه ، وأخذت عيون الناس ترمقنا وألسنتهم تلوك خبر مجئ والده العمدة يخطبنى لابنه .

رضى والدى بتزويجى من ذلك الشاب الذى قال لى عنه أنه يعرفه منذ كان طفلا يحبو وغلاما هجر القرية ، ويعرف أن لأبيه العمدة حكاية طريفة سيحكيها لى فى فرصة أخرى ، وقال يطمئننى وهـــو يربّت كتفى بأنى سأكون سعيدة بالزواج من هذا العصامى الذى صيّر نفسه رجلا برغم تقلب أحداث الشقاء عليه ، وقد بالغ فى وصف طموحه وأردف بأنه دعاه وحده لتنــــاول الطعام معنا يوم الجمعة المقبل .

قلت : أعنى أن والدك جعلك أَمام ألأمر الواقع .

قالت : هو ذاك ، وقد أجلسنى قبالة ذلك الشاب على المائدة . . . ليس والدى كما عرفت من ضيق الذهن ولا هو بالمتهاون فى العرف ، إلا أن تسامحه أو تمسكه بالتقاليد رهين بالظروف .... لقد تقدم شبان من قبل

الى طلب يدى ، فكان والدى لا يسمح بظهورى أمامهم بينما كنت أمشى فى شوارع المديرية سافرة الوجه حاسرة الرأس ، أما فى هذه المرة فقد جعلنى أشعر أنه يدنينى من زوجى العتيد

سأعفى نفسى يازوجى العزيز بل أرجو أن تعفينى من وصف وقع تلك المقابلة فى نفسى ، لأنها أشعرتنى برعشة تحولت بلحظة واحدة إلى رجفة سرت فى جسمى فأيقظت ذهنى ليعى كل كلمة أو نأمة ، وتنبهت عينى لترى كل حركه وتقدر كل اشارة ، تميز القسمات والتقاطيع ، تنقد وتقرظ ، ثم عدت الى داخل نفسى أتحسس مركز استقرار الرعشة الأولى وودت لو تعود .

ضحكت يا صاحبى فى سرى من طلبها الاعفاء وقد باحت بشعورها فوصفته أدق وصف وقد استطردت: لقد أعفيت نفسى من وصف تلك المقابلة لأكتفى بالقول بان ذلك الشاب أخذ يخوض فى حديث الحرب ، يشرح موقف الإنجليز من خصومهم ، وموقف مصر من الأمبراطورية البريطانية ، وقال أن الإنجليز سيربحون الحرب لا بسلاحهم الفتاك بل بمتانة أعصابهم وصلادة أخلاقهم ثم باساليبهم فى تسخير القوة للعمل ،

وتسخير الرجال بالمال ، وتمنى أن يحذو كل مصرى حذو هؤلاء الأعداء فى تقويم أخلاقه لنظفر بالحياة ونستمتع بالحرية كاملة بالاعتماد على النفس وحدها .

صمتت هنيهـــة ثم صوبت لى نظرة وقالت بدلال : أيأذن مولاى بان يكون اعترافى عاما ليكون غفرانك لى كاملا ؟

قلت بكبرياء المتعاظم : لا عليك .

قالت : لقد أويت إلى سريرى وأغمضت جفنى لأرى وأسمع ما انطبع فى ذهنى ، وأخذت أراجع حديت ذلك الشاب وأستعرض لون عينيه وبريقهما ، وطرفات جفونه ، وقسمات وجهه ، وغلظ شفته السفلى ، واتساع جبهته ، وكثافة شعره ، ولوازمه فى الأشـــارة والحركة وترديد الكلمة ، كما لاحظت قوة عضلاته ، وسعة كتفيه ، وكبر كفيه ، والتفت بنوع خاص إلى معانيه وقد استمدها من بداهة الذهن ، ونقاء السليقة ثم زمت حاجبيها وقالت بلهجة المقرر : لم أر فيه مسربا من مسارب الثقافة أو طريقا

من طرق العـــلم إنما كانت معارفه مكتسبة عرفها من كلماته ومفرداتها المحدودة ، إنما لمحت فيه عزيمة وثابة تسطع من نظراته ، ومن زمات شفتيه ، وتودّج عرقين فى جانبى عنقـه ، ومن توتر أصابعه ، فقلت فى سرى أن رجلا هذه سجاياه وخلائقه وصفاته ، قـد يعطى المرأة بسخاء وجود وباسراف أيضا ، أما إذا انحرف عنها ، فانما يكون انحرافه انصرافا كليا لا رجعة بعده ، والويل لها إذا كانت لا تدرك ببداهتها بواعث إقباله عليها وانصرافه عنها .

أخذت أستحلب ريقى الجاف ، وأسأل نفسى اية فتاة هى زوجتى هذه ، ومن أكون بالنسبة لذلك الشاب الذى وصفته ؟ لقد كتمت خاطرى برشفة من فنجـان القهوة وبمداعبة مبسم النارجيلة والانتباه إلى الحديث .

واستطردت تقول وهى تثبت النظر فى عينى : لقد ألهمت هذا الحكم على ذلك الشاب المتوفز الهمة ، ثم وازنت بين صلابتى وقد نجوت من تيارات الشباب الجارفة ، وانتصارى عليها بالحرمان والكبت وقد أخذت أقرع أبواب

الثلاثين من عمرى . وقارنت بين الأشياء التى تعلمتهـــا وحشرتهـــا فى دماغى ، وازنت كل ذلك وقارنته بذلك الشاب الذى مازالت أنسجته نقيه كما براها خالقها فقلت أن البرزخ الذى يفصل بينى وبينه انما هو برزخ جدّ بعيد ، وتمنيت لو أهبط إلى مستواه فى العقل الفطرى ، أو يرتفع هو إلى مستوى عقلى النصف لنلتقى هنا عند سفح فكر واحد كما نلتقى هناك بالغريزة عند نقطة واحدة ؟؟ . . . ولـكنى قبل أن أسلم أجفانى للنوم ومستقبلى للقدر ، كنت وطدت العزم وعقدت النية على الأخذ بيد ذلك العصامى ، أو نبت الشيطان ، كما يقولون لأرفعه إلى مستواى .

قلت بلهجة الزوج الموتور يتصنع المرح ... وقد سكتت شهرزاد عن الكلام المباح ، وقمنـا إلى غرفتنا وتوسدت فراشى أفسح المجال لوعيي الباطن يستوعب على مهل كل كلمة ومعنى فى حديث زوجتى ويتلمس الآثار الباقية من تلك الواقعة الرصينة فى مطلع حياتها .

وفى صباح اليوم الثانى نهضت زوجتى من فراشها

وكانت بسماتها تشف عن الرضا والفرح بالحياة . وقد راق لى ان أقضى ذلك النهار فى مطعم عند شجر الأرز من فوقه الثلج الخالد على قمم الجبال . وهناك استأنفت زوجتى الحديث فقالت :

إنتشر خبر خطبتى بين الاهل والمعارف فاقبلوا رجالا ونساءاً ، « فرادى وجماعات للتهنئة ، يدعون للعرسين بالرفاء والبنين . ومن المضحك والمخجل معا أن زغاريد النساء كانت أشبه باسراب الحمام ما تكاد تحط حتى تنطلق ، وكنت أضحك وأعجب فى وقت واحد من هاتيك الالسنة تتحرك لتعبر بالزغاريد عن أحاسيس النفوس بالفرح .

جاء والدى ذات عشية ، يعلن مجىء خطيبى لوداعنا قبل عودته إلى عمله فى معسكر الاسماعيلية .

كتمت فرحة شاعت فى شيوع الصبح عند الانبلاج وأحسست بالشوق لتلك الزيارة واغتبطت بها قبل حدوثها ، وكدت أفضح نفسى لفرط ابتهاجى بها ، ولكنى كتمت شواعرى مهابة من والدى، والتزمت هدؤا مالبثت أرسنته أن

انفلتت من قبضتى عندما طالعنى وجه خطيبتى الحيى ، ووضع كفه بكفى للسلام

أدرك والدى ما يجيش فى صدرى شابين مثلنا لا هما مدنيان ألفا الحياة الاجتماعية فتسلحا بسلاح المناعة الاخلاقية ولا هما قرويان كبلتهما عادات وقيود عتيقة بالية ... لم يدرك والدى ذلك ببداهته ، بل عرفها من عيوننا النهامة ونظراتها الواشية فقام يتشاغل عنا وقد دعا والدتى إلى مشاركته فى التشاغل أيضا وهو يعلم أية فتاة هى فتاته

فاضت الطمانينة فيضها على خطيبى وصوب لى نظرة هادئة وأراد أن يتكلم فارتج عليه الكلام .

صمتت هنيهة ثم قالت مرة ثانية : هل يسمح لى زوجى العزيز أن أتجاوز عن ذكر عبارات خطيبى ذاك وأن أعبر بلسانى عن بيانه ؟

قلت : أتقوين على المحافظة على روح الكلام ؟ فأجابت : كل شىء يفنى الا الروح ، وكل ما يلتصق بها يخلد معها ، ثم قالت : قال خطيبى وقد أطرق برأسه ونكس بصره ،

يحسن أن أقول لك من أنا قبل أن تعرفى ذلك من أفواه الناس .

قلت : إن رضاى بك زوجاً لى يغنينى عن كل تعريف

فأجاب وقد تضرج وجهه حياء : يجب على أن أطلعك على سفر ماضى وقد كتب القدر سطوره بمداد من دموع الالم ، وأن أبسط صحائف مستقبلنا بيضاء نقية تكتبين أنت حروفها وكلماتها وجملها وعباراتها وتزينيها بنقط تكون كالأزهار تزين حياتنا الزوجية

قلت : أنى مشوقة إلى سماعك متطلعة إلى كل ما تقول .

قال : قيل لى أن والدى لم يطل عشرة والدتى وقد نفر منها نفــــور الكاره لغير ما سبب واضح أو عذر مستساغ ثم طلقها ، ولم يشأ أن ينفق على وليده الذى لم يره ولم يحاول رؤيته قط ، بل أنــكره ومنع بنفوذه نسبته اليه ، ولم يلتفت إلى الوسطـاء الذين وسطهم أخوالى عنده لأنه كان كبير الاعتزاز بكرامته وقوته وسلطانه

لم تطل حضانة والدتى لى وقد أسلمتنى إلى جدتى قبل

إتمامى السنة الأولى لتستقبل حياة زوجية جديدة . كذلك لم يصطبر القدر على جدتى معيلتى بل مد يده اليها فتركتنى أحبو فى الدار ، أو أهيم فى الحارة . أنام حيثما كان وكيفما اتفق . أتبلغ مما تتفضل على به نسوة أخوالى وكن لا يسألننى أين كنت ولا ماذا فعلت . أما والدتى فقد كانت تتسلل من بيت زوجها فتختطفنى من الحارة تنزع عنى أثمالى ، وتنظف من قذارتى ، وتطعمنى مما كانت تستبقيه من طعام ، ولكنها كانت تحرم على المجىء اليها ، وكنت أتهيب الرواح إلى بيتها مخافة أن يرانى زوجها فينهرنى أو يزجرنى أو يطردنى ، ولكن سرعان ما تناستنى أمى وقد انشغلت عنى بأولادها

أن أنس لا أنس يوم لحقت بفتية وفتيات ذاهبين إلى الحقل للعمل فى جنى القطن وقد وقفوا جميعا أمام رجل مديد القامة يحمل بيده قضيبا من خيزران لدن وقد أخذ يعدّ الصبية واحداً بعد واحد يسألهم عن أسمائهم ، ولما جاء دورى تلعثمت وجمد لسانى لأنى لا أعرف الا أن إسمى مصطفى الرواش وأن أمى اسمها « أمى » ولا أعرف أسم أبى ذاك الرواش ولا أين هو أبى . سألنى الرجل بادى المهابة هل

أمك زوجة الشيخ « حمدان » قلت نعم ، فهز رأسه وسكت .

جمعت من القطن فى ذلك النهار ما يقرب من الكمية التى جمعها قرين لى يكبرنى سنا ، وقد مددت يدى أتناول لقمة من هذا الغلام أو كسرة من الخبز من تلك الفتاة أتبلغها لأن لا زوادة لى كزوادة الغلمان .

ضممت أصابعى إلى كفى ضم الحريص على القرش الصاغ التى أعطانيه الرجل الطويل القامة ثمنا لزوادتى فى اليوم التالى وأخذت أفكر فى هل أشترى زاد الغد من البائع أو أطلبه من واحدة من نسوة أخوالى ، وهل تعطينى إياه ولا تنتزعن القرش منى؟

لعقد أعسرتنى تلك العقدة ولم يتسير لى حلها ، ثم زادت تعقداً فى نهاية الاسبوع وقد قبضت أجرى من عملى فى الحقل قروشا ، وعندها قلت لا مناص لى للخلاص إلا بواحد من أمرين : الاعتراف لأحدى نساء أخوالى بأنى أعمل فى الحقل وأربح قروشاً ان لم اعطها اياها انتزعتها منى قسرا . أو العمل فى بيت « افندى » يقيم

فى القاهرة يطعمنى ويكسينى وأدخر أجرى عنده إلى أن أكبر .

إندسست بين ركاب السيارة الحافلة « أوتوبيس » ولم أدفع أجر انتقالى إلى القاهرة سوى قرشين ولطمتين وفيض من الشتائم انصب على أمى غير المحصنة وأبى الحيوان الامين ، أما بقية ثمن تذكرة الركوب فقد دفعها ركاب السيارة عنى

سألت سيدا وجيها هبط من السيارة العمومية حين وصلنا إلى « شبرا » أن أحمل له حقيبة وسلة كانتا معه ، فقبل فأعطانى السلة واستبق الحقيبة لأنى لا أقوى على حملها وقد بلغنا الترام ، ولم أكن أعرف ما هو الترام فنقدنى قرشا ففرحت بهذا الأجر السخى .

مشيت على غير هدى أنظر كالمشدوه إلى بيوت شاهقة وسيارات عجلانة ، وطرق مزدحمة ، وناس منهمكين ... لم أضل السبيل لأنه ليس لى هدف ، ولولا إحساسى بالجوع لكنت شغلت بمباهج المدينة عن معدتى الخاوية .

ترددت فى إنفاق القرش ثمنا لطعامى ، ولكن الشره وشهية

الطعام هوّنا على إنفاقه ، ثم اخذت أفكر أين أبيت

تخيرت رجلا من المـــارة عرضت عليه خدمتى فى بيته ... سألنى عن رخصتى فلم أفهم ما هى الرخصة وتلجلجت فنهرنى وأعرض عنى ... التفت الى رجل من المارة يسألنى ماذا أعمل ومن أين أنا آت ، وقد دعانى إلى الخدمة فى بيته فرضيت .

نعمت فى بيت مخدومى ، أطعم مما يأكله أولاده ، والبس ثياب نظيفة مثلهم ، ألعب معهم ، وأنام بالقرب من غرفة تومهم

ضاق بى البيت بعد حين وقد فرغ من الأولاد لذهابهم منذ الصباح المبكر إلى مدارسهم ، وصرت أتشاغل تارة بالطهى وتارة أخرى بالغسيل والكى عن سماع حديث ربة البيت ، وعن الرد على اسئلتها المحرجة ، والحاحها فى طاب معرفة سنى ، وكنت أهرب منها . .

عيّرنى صبية من خدم البيوت كنت ألقاهم عند القصاب أو الخباز بانى أعمل فى بيت مخدومى أعمال النساء ، أغسل الثياب ، وأرافق الأولاد فى النزهة مثل البنات.

كبر على أن أعيّر وأشبه بالمرأة ، وصرت أخجل من نفسى ومن الخدم زملائى وأخذت أحس بنفور من السيدة ربة البيت .

لجأت إلى مصنع يديره خواجه إيطالى يخرط الحـــديد ويلحمه ، رغبت فى تعلم صناعة اللحام فتعلمت ، وانكببت أتمرن على خرط الحـديد ، لقـد شجعنى الخـواجة الطيب القلب على العمل ، وعلى الاجتهاد فى العمل ، وعلى حب العمل فى ذاته ، ونصحنى بالابتعـاد عن معاشرة العمال زمـلائى لأن أكثرهم كسول كذاب مقامر ، أخذت أشعر بشخصيتى أطبع بها عملى ، وأعتز برجولتى يشيد بها الخواجة صاحب المصنع ، خصوصا عندما كان يعير زملائى باعمالهم الخالية من الذوق الفنى ويباهى بعملى الصناعى الملىء بالدقة والفن .

سألته مرة عن الفن فى الحديد المخروط فاجابنى إجابة لم أفهمها آنذاك ولم أفهم معناها حتى هذه الساعة ، إلا أنى أدركت أنه كان يريد أن يشبه الفن بالحب ، لأن الحب فن ، وأن لا فرق بينهما ، وأن كل مخلوق يحب إنما هو فنان إذا عرف دواعى الحب واستجاباته .

قطعت على خطبي ذاك استرساله فى الحديث وسالته هل أنت تحبنى ؟ .

لم يجب المسكين بلا أو نعم ، ولكنه زاد فى إطراقه وخفض جفنيه وقد اصطبغ وجهه بحمرة الورد، وبعد هنيهة عاد يقول

قامت قيامة العالم إلى الحرب... استولت السلطة العسكرية الإنجليزية فى مصر على مصنع الخواجة ، وبعثت بالمسكين إلى المعتقل فى « فايد » وقد استبقت من رضى البقاء فى المصنع من العمال المصريين ، أما أنا فلم يطل بقائى فى ذلك المصنع لأن « الميجر » وهو رئيس المهندسين أرسلنى إلى « الاسماعيلية » وقد عملت رئيسا أو هو صيرنى عريفا على الخراطين ولاحمى الحديد فى ذلك المصنع الكبير .

أخذت مكانتى تتوطد عند رؤسائى وزملائى من الإنجليز وقد تعلمت رطانتهم وصرت أسايرهم فى بعض عاداتهم ، أما أجرى فقد تزايد وتزايد حتى بلغ الجنيهين فى النهار الواحد خلاف ساعات العمل الإيضافيه .

فى البدء فرحت بالمال كثيرا وكنت أجمع الجنيه الواحد إلى الثانى حتى تجمعت الآحاد فصارت عشرات .... مللت

الحرص على جنيهاتى فأودعتها صندوق التوفير فى البريد . . .
ضاق الدفتر بما ادخرت لأن الأرقام استوفت قدرها المقنن

لقيت العمال المصريين فى « الاسماعيلية » يقلدون الانجليز فى شرب « البيرة والوسكى » وفى العربدة والاعتداء على الناس ولقيت أكثرهم يتجمعون فى الليل حول موقد يدخنون الحشيش غير عابئين بالغارات الجوية ، كما لقيت نفراً منهم يقضون أجازاتهم عند أهلهم .

أنفت أن أكون سكيرا أو عربيدا أو حشاشا جبانا وعزّ على أن أكون بلا أهل . . . لقد تركز الشوق فى ذهنى ولجَّ خاطرى فى طلب رؤية أهلى وبلدى ... سألت نفسى هل أخوالى ونسوتهم هم أهلى وقد كنت عندهم الطفل المهمل المتروك والفتى الضال ؟ وأمى ... ألم تفن فى زوجها وبيتها ألم تنسنى ، وهل نبذتنى من قلبها ؟ ألم أضع من بالها كما أنا ضائع هنا فى العمل المتواصل والكسب الذى لا طعم له ؟ وأبى من تراه يكون أبى هذا الذى لم يرد اسمه قط على ألسنة أخوالى ونساؤهم ولا على بالى أيضا إلا يوم خطر لى باغتباط أن أرى أهلى ؟ ؟

كنت أضج بأسئلتي وبخواطري وكثيرا ما قلت : مالى أحيي الميت فى بالى وأنبش قبور أولئك الأهل وقد تركونى أهيم فى الحياة وحدى ؟ بل مالى أَضيق بهاتيك الخواطر الملحاحة وأنا على مثل ما أنا عليه من استغراق فى أعمـــال السلطة العسكرية وفى مسؤولية أحمل عبئها أنا المصرى فى أوساط انجليزية تستعبد قومى وتحتل بلادى ؟!!

أخذت أَستمهل خواطرى ، وأماطل فى قضاء رغباتى وأطمئن أمنيتى تارة بالوعود وطوراً بالتسويف!! وقد حدث ذات يوم أن تقدمت من رئيسى أطلب منه إجازة أقضيها خارج « الإسماعيلية » فسرعان ما لبى طلبى وزودنى بتذكرة للسفر بالمجان ويإذن يصرف لى بموجبه مبلغ من المال .

قالت : وقد قامت من مقعدها تتمطى وجلست إلى جانبى وقد همست فى أذنى ، لقد أزف وقت النوم وسأنام على ذراع زوجى الحبيب .

نهضت من فراشى مبكراً أستقبل وجه الصباح البهى فى لبنان ، فاذا به مبرقع ببرقع شفّاف من الضباب حجب خيوط الشمس عن الامتداد على الأرض ، وصدّ الهواء عن الانسياب

رقيقا يداعب أغصان الشجر، وأطلق دموع الندى تقطر فتبلل البسيطة، وتجهم وعبس فبدا كوجه فتاة غضبى ! !

ألفت ياصاحبي رؤية مثل هذا الوجه المقطب فى القاهرة يتلفع «بشابورة» قلّ أن تدوم طويلا أو تصمد لاندفاع أشعة الشمس، ولكنه فى لبنان كريه بغيض لثقل ظله، وكثافة دمه، وحجبه العين عن الرؤية من القرب فقلت فى نفسى أن الاعتكاف فى مثل ذلك النهار كالح الطلعة خير من تعريض الصدر للضيق والأعصاب للتوتر، وقد رضيت زوجتى بالاعتكاف والابتعاد حتى عن نزلاء الفندق فى ذلك النهار.

فى صبيحة ذلك النهار الساخن الجامد. حمل إلينا ساعى البريد رسالة واردة من مصر ما كاد يقع نظر زوجتى عليها حتى قالت بصوتها الناعم الهادىء هذا خط أبى. فقلت لها أن تفضه، وأن تسمعنى تلاوتها

أنصتّ إلى سماع كلام عمى، وما لبثت مشاعرى أن تيقظت تتلقف كل كلمة وجملة وعبارة وملاحظة ورأى وارد فى ذلك الكتاب! وقد استرعت انتباهى بنوع خاص، طريقة تلاوة زوجتى فقد كانت كأنها تتقمص روح والدها فى النطق

والاشارة المعبرة وقد أفاضت روحه على الصور وأشاعتها في المعانى الواردة فيه .

التفت محدثى يقول لى : لست أنقل إليك يا صاحبى المعانى الواردة فى ذلك الكتاب ، ولا ألخصها أو أقتبس فقرات منه بل أتلوه عليك لأنى حفظته نصا ووعيته معنى، وسيبقى عالقاً بذهنى إلى أمد طويل وأخذ يتلو .

صهرى العزيز

سمعت، ولا شك من المذياع خبر تنازل الملك فاروق بل إرغامه على التنازل عن الملك وذلك فى اليوم السادس والعشرين من شهر يوليو (تموز) سنة ١٩٥٢

لا ريب فى أن الخبر أفرحك كما أفرح قلب كل مصرى ، وأشعرك كما أشعره بانزياح كابوس ثقيل كان جاثماً على كل صدر ، وطمأن كل مواطن بأن الخطر الذى كان يهدد عرضه وماله وكرامته قد زال بزوال ذلك الطاغية .

وقفت طويلا ياصهرى العزيز أسأل نفسى لمَ لم يجهز رجال الانقلاب على فاروق ؟ وهل من العدل أن يفلت الأثيم من قصاص عادل ؟

لم يطل وقوفى حيال هـذه الفـكرة فقد أعلن المذيع خبر ارتحال الملك المخلوع على الباخرة « المحروسة » التى أقلعت وستلقى مراسيها وتفرغ حملها الثقيل فى ميناء إيطالى .

لماذا تعفف العسكريون عن القتل ؟ هل حلَّت بهم روح من الله فجعلتهم فلاسفة حكماء ؟ أو أن حكمة الأوضاع المقلوبة التى جعلتنا نظر إلى القواعد المقررة ، والقوانين المقننة ، والأقيسة المضبوطة . واستخراج النتائج من المقدمات ، والاسترشاد بالمنطق السليم نظرة استهانة واستهتار ، أقول هل سرت حكمة تلك الأوضاع المقلوبة إلى العسكريين فجعلتهم رحمـــاء ، أو أنهم تعففوا عن قتله لأنه لا يستأهل أن تتدنس يد مصرى بدمه غير المصرى ؟ أو لأنهم تنبهوا إلى العواقب والعقابيل ، أو أنهم عن حكمة طردوه ولم يقتلوه وبذلك أوصدوا أبواب الشفقة دون المتشدقين والضعفاء ومنتهزى الفرص ؟ ؟

سواء يا صهرى العزيز ، أكان هذا أم ذاك فإنى أنهى الحمد لرجال الانقلاب على ترفعهم عن إهدار دم الملك الشرير وعلى

تركهم إياه يموت على مهل موتاً أدبياً ، لا فى مصر بل فى الغربة على مرأى ومسمع من شعوب العالم ، ولأن هذا الموت هو السبيل القويم إلى اجتثاث العطف عليه من كل قلب ، واقتلاع الشفقة به من كل صدر ، ولأنه الوسيلة المثلى إلى جعل قلب كل مصرى كالسدّ المنيع دون الملكية وحكم الفرد .

لم أر بعد ياصهرى العزيز وجه اللواء « محمد نجيب » بطل هذا الانقلاب الذى أتمنى أن يكون فاتحة لتطهير البلاد من العائلة المالكة ، لأنى أعتقد أن الملكية الفردية إنما هى نظام لا يخلق أن يفرض إلا على شعب تأصلت فيه جذور العبودية وصار الرضوخ والاستسلام والركون إلى الاستكانة من مستلزمات حياته . قلت لم أر وجه اللواء محمد نجيب بعد فاقرأ فى تقاسيمه ما إذا كان بطلا فى صـــورة قديس أو بطلا فى صورة مستبد عادل . وقد يستوى عندى أكان بطلا بصورة قديس يسوس الشعب بالحب والحنان والرفق ، أو بطلا عسكريا يفرض عدله على الشعب فرضا . لأنى أكاد أؤمن أن بطولة اللواء محمد نجيب مهما بلغت من الرفعة والسمو ، ومهما جمعت من خصائص العبقرية والاصلاح ، ليست بكافيه لمقاتلة كل الطغاة

وما أكثرهم فى مصر ، ومحو الفساد المستشرى فى النفوس ، بمثل السهولة التى بها أنزل الملك فاروق عن عرشه ورماه فى عالم التشرد والغربة .

تعلم ياصهرى العزيز أن عدد الطغاة فى مصر لا يزيد على عشرات المئات، منهم الباشوات، وأصحاب الاقطاعيات الواسعة. والمرتزقة من أموال المستعمرين ، وطائفة تسمى بشيوخ الأمة ونوابها، وبعض حملة الأقلام وقادة الفكر والجواسيس ، وطغمة ليست بالقليلة من كبار موظفى الدولة ، هؤلاء وغيرهم هم الطغاة وطغيانهم نسبى بالقياس إلى كبيرهم المخلوع، هل ترى ستمتد العصا السحرية إلى هؤلاء الطغاة فتمحوهم محوا ، أو تقلم ظفارهم تقليما أو تضرب بعضهم بالبعض الآخر فينبش الواحد مساوىء الثانى ، ويشهد هذا بآثام ذاك ، ويشى هؤلاء بأولئك. وبذلك يصيرون جميعا مسبة الجيل ، ومعرّة التاريخ ، ومضغة الأفواء وخزى الأبناء من الآباء ، وعبرة لمن وعت نفوسهم حقوق الانسان ، وتيقظت أذهانهم على معرفة الحياة وتقدير المسؤولية والواجب ، أو أننا فى حاجة ماسة إلى عشرة من أمثال « محمد نجيب» بطل الانقلاب الأول ؟؟؟

يقال هنا أَن صحابة اللواء محمد نجيب لا تزيد على العشرة عــــدا إِلا قليلا ،وأنهم كلهم صنوه وقرينه فى الفداء والحب والاخلاص والايمان بمصر وشعب مصر، فهل ترى هذا الفادى المخلص هو «نجيب محمد» وصحابته قريعة صحابة محمد بن عبدالله ؟؟

يتحدث المتعالمون فى مصر. ولا أقول العلماء ، وتشاركهم بعض الأوساط الجامعية .... ولا أحاول أن أنقل اليــــك ياصهرى العزيز شقشقة ألسنة العلماء ، ولا ثرثرة أحلاس الفنادق والمقاهى ، ولا ترّهات بعض حملة الشهادات الجامعية ، وأنى لأعفى نفسى من التنديد بهم والسخرية بتشدقهم وادعاءاتهم ، ولا أَنقل اليك كفرهم الا لألفت نظرك إلى أمر لا يغيب عن ذهنك وهو أننا شعب مشينا قديما وما برحنا نمشى وراء حكامنا ولـكن قلوبنا تعرف من تحب ومتى تحب . وتشعر من تكره ومتى تكره ولماذا تكره !!

أين كان العلماء الأفاضل والأساتذة الأجلاء يوم كان فاروق على عرش طغيانه؟ أن صرير قلم واحد فى مناصرة الحرية الاجتماعية والدفاع عنها خير من عشرات القصائد ينظمها الشعراء فى التغنى بالحرية

إن صوتا واحدا يرتفع مناديا بسقوط الطاغية خير من أصوات آلاف من الناس تنادى بحياة البطل الظافر.

إن احترام البطل واجب ، والأكثر وجوبا من احترام البطل أن لا نشيع الغرور فى نفسه بالتهليل له والمناداة بحياته لأن الغرور هو الكفن الذى تدرج فيه وثبة البطل

وفى الختام أقول لك ياصهرى العزيز إنى برغم رضاى المطلق عن هذا الانقلاب ، وبرغم إكبارى وإعجابى باللواء نجيب وصحبه ، وبرغم إقتناعى الذاتى بأن هؤلاء الأبطال سيفعلون ثم يقولون ، وأنهم سيعرفون كيف يتملصون من حبائل الانجليز أصحاب العبقريات النادرة فى المراوغة والمطاولة ونصب الأحابيل وإيقاع الفتن بين الأخ وأَخيه ، والابن وأبيه ، وفى بذر بذور البغض فى الشعب الواحد وتمزيق وحدته ، إنهم سينتصرون على الغاصبين ويطهرون البلاد من الاحتلال ، وإنهم سيصلون حتما إلى تحقيق أغراض الأمة وأمانيها هذا إذا اعتصموا بحبل الاتحاد والقوة ، وتمسكوا بمبادىء الثورة الحمراء ، ولم ينحرفوا عن صراطها ، وأن لا ينخدعوا بألوان لها غير اللون الأحمر ، وأن يرووا الأرض المتعطشة إلى الاصلاح بالدماء « للأُبد الأرض

«التي لا تروى بالدماء لا تنبت الإصلاح» برغم ذلك كله أقول أن ثورتنا بتراء عرجاء . ناقصة ناقصة . وأن لا منجاة لنا من أعدائنا فى الداخل وفى الخارج إلا يوم إعلان ثورتنا الكبرى ، الثورة التى لا معنى للحياة بدونها ، ولا رجاء لنا بغير إعلانها ، وثورتنا المنشودة تلك . ليست فى حاجة إلى محمد نجيب ولا إلى نبى مرسل لأنها «**ثورة النفس على النفس**» .

تقبل يا صهرى العزيز محبة والد يساوى بها بين ابنه وابنته الوحيدة ، وتحيات والدين لا يملكان إلا الدعاء بدوام سعادة «صفاء» وهناءة العروسين

ما إن أتمت زوجتى تلاوة الكتاب وأنا مصغ منتبه واع ما جاء فيه ، حتى رأيت البشر يعلو وجهها والسرور يتمثل فى ابتسامتها ، والتفتت إلى تقول : إن من نعم الله على مصر أن تم خلع الطاغية بغير صدام دموى أو هبّة من انتفاضة من رجال الحاشية والزبانية والمرتزقة ، وأنى لفخورة بأبى لأن نظريته فى الملك فاروق كانت صحيحة ، وأن تنبؤه فيما يكون الحال عليه بعد خلعه سيتحقق .

قلت : هل كان لأبيك نظرية وتنبؤات . أَلم ينصرف إلى الزراعة وحياة الفلاح ؟

قالت بلى : لقد كان والدى يقول لزواره الذين انصرفوا مثله إلى الزراعة وعيشة الفلاحين ، أن كل طاغية جبان رعديد ، وأن جبنه وبطانته علة طغيانه . ويقول أيضا أَن الثورة المرتقبة ، أعنى هذه ، ستكون ذات ثلاثة شعب . الأولى لانتزاع الأرض من أَصحاب الاقطاعيات وتحديد الملكية الفردية . والثانية للقضاء على الباشوات والألقـــاب وتطهير الأداة الحكومية الفاسدة . والثالثة وهى أصلها وأَهونها فى وقت واحد . هى إجلاء الانجليز عن أرض الوطن ، ثم اعلم يازوجى العزيز أن والدى كان من جملة الأوائل الذين كانوا يعملون لخلاص وطنهم مع المرحوم « مصطفى كامل » وكان من أنصار « الوردانى » . رحمه الله وغفر له ، قالت هـــذا وهى تتباهى مرفوعة الرأس ممدودة العنق ، فتذكرت القول المأثور « كل فتاة بأبيها معجبة »

قلت : هل تعرفين أن هناك من كان يعمل لهذه الثورة ؟

فأجابت ببساطة من يتكلم فى البديهيات :

أن فاروق وحوادث أمه وأخته من ناحية ، وأعمال أعوانه وحاشيته وزبانيته ووزراءه من ناحية ثانية ، كانوا يجمعون الحطب لإقامة المحرقة ، وأن الرجال العاملين لوطنهم لا لذواتهم كانوا من ناحية أخرى يترقبون المحرقة ليقربون كبش الفداء . ومن فضل الله على مصر أنه استجاب دعاء المصريين الذين باتوا مجمعين على الذل ينزله بهم الطاغية الرجيم ، ولكن الخوف الذى ألجم السنتهم، لم يكبل أيديهم ويغلها عن العمل ، وها قدظهر العمل الصالح من جماعة العسكريين الذين كان يعدهم الملك فاروق لأن يكونوا عدته يوم الشدّة .

شعرت ياصاحبي بالضيق من هذا الموضوع، وبالحاجة إلى الخلاص من حديث الثورة، وأن فى العودة إلى حكاية زوجتى واعترافها الصادق ما هو أخف وطأة على نفسى من أحداث الانقلاب الذى لا أدرى هل سيكون مقامى بين الرجال العاملين ، أو بين زملائى فى الجامعة . فقلت وقد سددت نظرة إلى زوجتى مقرونة بابتسامة الغيرة . لنعد إلى حديث خطيبك وقد عزم على المجىء إلى القاهرة .

* * *

كان الانتقال من الموضوع مفاجأة لزوجتى ولكنها تمالكت ثم أخذت تتمهل فى طىّ الرسالة وفى إعادتها إلى الغلاف ، وجلست فى متكأها المريح ،وقبل استئناف الكلام أخمدت فى صدرها تنهدة خرساء وقالت :

قال لى خطيبى المسكين، كنت شديد الشوق إلى زيارة القاهرة ولعلّ شوقى ذاك كان وليد يومه ، بل وليد ساعته إذ ما كدت أطأ رصيف محطة القاهرة حتى أخذت أفكر فيمن تجب زيارة من أعرف من سكانها .

رحت أول ما رحت أَزور بيت مخدومى ، ذلك البيت الذى لذت بربه يوم هجرت قريتى فلقيت ،الأولاد وقد صاروا شباناً وفرحوا بى ، ولشد ما انقلب فرحى إلى حسرة يوم زرت السيدة زوجة الخواجة الإيطالى صاحب مصنع خرط الحديد ، فعلمت من المسكينة أَنها تعيش من ثمن ما تبيع من أثاث بيتها ، وعشرة قروش تقبضها من دار القنصل السويسرى مساعدة يومية لها ومثلها لكل من ولديها . أما زوجها فما برح معتقلا فى معسكرات « فايد » . . . لقد منحت تلك السيدة منحة من المال قلت أنى سأستردها فيما بعد ثم قال :

لقد أقلقنى ضجيج القاهرة ، وترددت كثيرا فى السفر إلى بيت أخوالى . تمثلت نفسى طفلا سأحاسب على هربى منهم وألام على اختفائى عنهم طوال هاتيك الأعوام . وتخيلت أمى يوم كانت تختطفنى من الحارة فتأخذنى إلى بيتها تغسل جسمى القذر وتبدل جلبابى المهلهل ، وقد تراءت لى صور كثيرة كانت تقلبنى تقليبا وترنحى بين الاقدام والاحجام .

تعمدت أن أصل إلى بيت أخوالى عند ضحى يوم الجمعة فلما بلغت القرية وأخذت أجتاز الطريق إلى البيت ، كنت أحيى الدور والحارات والزرع والأشجار أبتسم لها ابتسامات الفرح بها ، وقد تمثلتها شخوصاً حية من أهلى ودمى نهضت للقائى .

هل صدّق أخوالى أنى ابن أختهم ؟ لمَ احتجبت نسوة أخـــوالى عنى ولم يظهرن أمامى حين ظهرن مقنعات غير سافرات ؟ كيف عرفتنى أمى وقد هرولت للقائى ففتحت لى صدرها فالتصقت به وأوغلت فيه فبلغت قلبها الخافق وحنوها الوديع . كانت أمى تقبلنى وهى تبكى . لا لأنى الولد الذى كان ضالا فوجد بل لأنى بعثت من جديد وقد شاع عنى

أنى مت غرقا يوم كنت أسبح فى الترعـة مع أولاد القرية وقد جرفنى التيار ، ولـكن حدس الأم الصادق كان يوحى إليها بأنى مازلت على قيد الحياة ، وأن روحى كانت تخاطب روحها وتعدها باللقاء ، وها قد التقينا بعد أعوام طوال ... لقد تبدت لى أمى جميلة ، طيبة القلب وديعة ، ولم أرض أن أقارنها بواحدة من نسوة أخوالى وقد أحببتها

قلت هل أحببت أمك أكثر منى ؟ فأجاب

حب الأم تقديس واستطرد يقول :

شاع خبر عودتى عند سكان القرية فهرعوا للسـلام على يسمعون من أخوالى أخبار نجاح ابن اختهم وحـكايات كفاحه وقد أثرى من العمل فى السلطة الإنجليزية . وقد رأيت زوج أمى وعرفته بين المقبلين للسلام على .

وبعد يوم أو يومين من وصولى ، أعلن معلن مجىء حضرة العمدة فأحسست برعشة لم أحس بمثلها إلا ساعة خفق قلبى لأمى . ولمحت اضطرابا ارتسم على وجوه أخوالى وارتباكا دب فى حركاتهم . أما أنا فقد أخذنى الزهو والخيلاء ، وأنى ما كدت أراه بقيافته ووجاهته حتى انكببت على يده أقبلها

جلس فجلسنا... لم يتكلم حضرة العمدة فسكتنا... تفحصت وجوه أخوالى فإذا بأمارات الحيرة بادية فيها... وتطلعت إلى وجه العمدة فإذا به منقبض وعيناه دامعتان، ولكن سرعان ما تبدلت ملامحه. وجرت على شفتيه ابتسامة رقيقة، وراح يسأل أخوالى أكبرهم فالأصغر عن حاله وعياله، كيف حال «الجماعة» وكم لك من الأولاد ... لقد كانت الردود على أسئلة العمدة مضطربة مقتضبة، ولم يكن الجو صافيا.

أدركت أن هناك أمراً خطيراً، وسراً لا بد من معرفته، ولكن أسئلة حضرة العمدة وقد أخذ يوجهها إلىّ، واسترساله فى الحديث معى صرفانى إلى حين عن التفكير فى السر الذى قلت بوجوب نبشه.

وقف حضرة العمدة فوقف جميع من فى المجلس، وتوجه بالكلام مرة أخرى إلى أخوالى بقوله لهم «نحن أهل يا جماعة» ومقام مصطفى هذا، وقد وضع يده على كتفى، هو فى بيتى فهيا بنا جميعا وأنت معنا ياشيخ حمدان —يعنى زوج أمى— هيا إلى بيتى وهو بيتكم نفرح بعودة ولدنا إلينا، وأخذنى من يدى.

لبى الجميع دعوة حضرة العمدة إلا الشيخ حمدان ، وإذا بحضرة العمدة يربّت كتفه ويقول له بمودة ورقة ، ليرحم الله الماضى ياشيخ حمدان أن وجود مصطفى معنا ، يحتّم علينا نسيان الماضى ويوجب عليك الفرح يابنى وهو إبنك وابن أخواله ايضاً.... وما كدنا نتخطى عتبة الغرفة ونبلغ صحن الدار ، حتى سمعنا الزغاريد تنطاق من حناجر النساء وقد رأيت أمى بين المزغردات تضحك وتبكى .

مشينا جماعات فى الطريق إلى القرية القريبة حيث دار العمدة وقد لقيت من كرم الضيافة عنده ، ومن تأهيله بأخـــوالى وبزوج أمى ، ومن الهشاشة لى والحدب علىّ ما دعانى إلى إعمال الفكر فى حل هذا الأمر الغامض . أخذت أجتر قول العمدة للشيخ « حمدان » فلم أهضمه ، وأنى لى أن أفهم ، أنى ابن للشيخ حمدان كما أنى ابن لأخوالى وأن العمدة والدى ؟ كل هاتيك الأقوال كانت لى بمثابة أحاجى ، ثم تعقدت هـــذه الألغاز ساعة رأيت العمدة وأخوالى وزوج أمى يدخلون غرفة فى الدار وقد خرجوا منها بعد ساعة طويلة من عزلتهم مشرقة وجوههم بالابتسامات .

قارب الليل أن ينتصف ، وقد أخذ زوار العمدة ينصرفون ولما همّ أخوالى بالانصراف قمت معهم وإذا بحضرة العمدة يقول لى بلهجة فيها من التلطف بقدر ما فيها من الارادة الآمرة « أَلم أقل لك يا مصطفى أن مقامك هو فى بيتى » ومن العجيب إنى تسمرت فى مكانى ... وقد ودعنى أخوالى وزوج أمى دون أن ألفظ كلمة أو أبدى إشارة تدل على الرفض أو الاعتراض ووقفت وقفة المستسلم .

نهضت زوجتى وقد أشاعت على وجهها ابتسامة كانت كالسحابة الشفافة فى السماء الصافية : ألا يأمر مولاى أمته الثرثارة أن تسكت عن الكلام المباح وقد أَزف وقت الطعام

قلت وكأنى حقاً شهريار الحكيم : أَراك تختزلين الكلام جلسة بعد جلسة ، و يحسن منك الاسترسال فى الحكاية لأرى كيف يكون انطباق فمك عند توكيد الكلمة وكيف تتكسر العبارة العاطفية وتلين فى شفيتك القرمزيتين

قالت ما علينا اليوم من هذه اللمحات يا زوجى هيا إلى الطعام ... وبعد العشاء قمنا إلى الشرفة نحتسى القهوة و ندخن وطفقت زوجتى تقول :

قال خطيبي : أَحييت الليل أَستعرض مشاهد النهار ، أَمضغ أَقوال العمدة وأَجترها وأَستعيد مواقف أخوالي وقد كانت صامتة خرساء . لقد عييت حقاً عن إستجلاء الموقف ، ولم أدرك حتى بواعث الزغردة وقد اشتركت فيها نسوة الحي أجمعين . وقرب الفجر شعرت بباب غرفتي يفتح ورأيت حضرة العمدة يقـــترب مني ويجلس في جانب فراشي ، ولم يدعني أنهض من مضجعي ، وأمرني أن أنصت إليه : قص على قصة نظرته الأولى لأمي ، ووصف لي أثر تلك النظرة في نفسه وقال ، لقد بنيت بأمك . ولم يطل أمد عشرتي لها لأسباب لم يكن في وسعي دفعها ، ولا في استطاعة الطب معالجتها ، ولا في مقدور أمك الصبية إلا السكوت عنها والصبر على احتمالها ، ولكني أنا الرجل المتخاذل ، لم أَعد أَطق نفسي فطلقت زوجتي طلاق الضعيف المستقوى ، ونبذتها نبذ الجبار الرعديد ، ولم أعلم أنها حملت مني ولا كيف حملت ، لذلك ثرت على نفسي وجن جنوني . . . لقد أنكرتك يوم ولدتك أمك وإمعاناً مني في الانكار وزعت أطياني على زوجتي الأولى وأولادها ، لقد تعمدت حرمانك من كل حقوقك نكاية

بأمك وقد صفعتنى بسكوتها ، وبأخوالك وقد دفنوا تخاذلى بشمم وأريحية ، لقـد أشعلت أمك بتغاضيها عنى فحمة ضميرى فأخذ يبكتنى وينهش قلبى .... آه لو كنت تعلم يا ولدى كيف كانت الغيره تنهش قلبى يوم قيل لى أن الشيخ حمدان تزوج من أمك ، ثم كيف أخذت أَطمئن بعض الاطمئنان يوم قيل أنك مت غريقاً كأنك غريمى.... لقد جازت إشاعة غرقك على كل الناس وعلى أخوالك أيضاً وقد استجزتها لأغالط نفسى ، ولـكنى كنت أتتبع خطواتك منذ كنت تحبو بالحارة، ويوم جئت الحقل تجنى القطن مع الصبية ويوم ركبت الأوتوبيس إلى القاهرة ، وقد هدأ قلقى لطول غيابك وأخذت أوهم نفسى بأنك متّ حقيقة لأميت شعورى بالتخاذل والحياء من ضعفى، وهو ضعف لا حيلة فيه ولا حياء، إنما هى المكابرة الجاهلة والعناد الأحمق . والآن وقد عدت يا ولدى بعد أن كونت نفسك ، وصيرت رجولتك بعزيمتك، فقد عدت لى وحدى ، أنا الشيخ الفانى .لقد أعادك الله بعد غياب طويل لأخفف عن صدرى بالاعتراف لك بخطيئتى الكبرى ضد أمك البريئة الطاهرة وضدك أَنت الذى لا جريرة لك ولا إثم . وصمت

هنيهة وهو مطرق ثم قال بلهجة توكيدية : سأكفّر عن كل ما اقترفت فى حقك ، سأعوض عليك ما أضعته من إرثك الشرعى بتزويجى إياك من فتاة ستكون لك خيراً من أبيك وأكثر عطفاً عليك عن أمك وجاء بى إلى والدك يطلب يدك لى ... لقد رضينى والدك الكريم أن أكون له صهرا فهل ترضين أنت بى فأكون لك زوجا حبيباً ؟

قلت لها: أن فى حكاية الوالد للولد فجوات يعسر تخطيها ... فقاطعتنى وقالت :

ليس فى سياق الحكاية فجوات، إنما فيها تحايل النفس المهذبة على وصف الأمر الشائك بالاشارة والرمز . وأعتقد أنك أدركت كل شىء ، واستطردت تقول : لقد ابتسمت لذلك المسكين ابتسامة الرضا وقد ودعنى مكتفيا بمصافحتى وقال لوالدى ساعة وداعنا بأنه لن يطيل غيابه

ولما خلوت بنفسى أخذت أتمثل صورة جديدة من صور قوة عزيمته ، وصراحته فى حديثه ، واعتداده بنفسه ، وجهره لى بما كان يجب أن يكون مكتوماً عنى .

بهاتيك السجايا فتحت قلبى للزوج المسكين ، وعلى تلك

الخلائق تنازلت عن مطامع الفتاة العصرية فى مشاركة الرجل ومساواته فى كل شىء ، وعدت إلى طبيعة المرأة ، إلى البيت الذى جعل لها ولم تجعل هى إلا له ، واستطردت تقول : أخذت كتب ذلك المسكين

قلت : لم تنعتين ذلك الحبيب بالمسكنة ؟

نظرت إلى نظرة ساهمة وهى ترفع رأسها بتثاقل وقالت : أخذت كتب ذلك الشاب المسكين ترد تباعا فى كل أسبوع ، لايحملها إلينا ساعى البريد، بل كان يقدمها لنا والده حضرة العمدة وقالت وهى تتكلف الابتسام ، قد يسليك سماع نص رسالة من هاتيك الرسائل ألا يثقل عليك أن أتلو واحدة منها ؟

قلت : وأنا شبه مختنق هل تحملين رسائله معك ؟

قالت: أجل كنت أحملها هنا ، وأشارت إلى صدرها ، إلا رسالة واحدة سأدفعها اليك ، أما تلك فقـــد كنت أعيها فى ذاكرتى ولكنك محوتها أنت بيدك الكريمة واستطردت تقول :

دعى حضرة العمدة إلى السفر فورا إلى الاسماعيلية بطلب من المعسكر الانجليزى . . . وعند عودته من رحلته تلك عرف والدى أن زوجى قد مات قتيلا .

قلت بنبرة : من الذى قتله ؟

قالت : القدر الظلوم الأهوج هو القاتل ، وقد انحدرت الدموع من عينيها وأخذت تتلقاها بمنديلها .

جمدت فى مكانى وركد لسانى ... لقد طال سكوتنا ، وكنت فى فترة الصمت الرهيب ذاك، أراقب انفعالات نفس زوجتى تنطبع على وجهها ، وكان صدرها يعلو ويهبط ، حتى توهمت أنها أغمى عليها ... أسرعت فأسعفتها بكأس من شراب منعش ، فانفرجت وهدأ انفعالها ، وعندما تمالكت أخذت تقول بصوت حزين : لقد فصّل العمدة وقائع النكبة فقال ، لقى المسكين قداحة ملقاة فى جانب الطريق فالتقطها . وبينما كان يعالجها بالفتح إنفجرت فمزقت جسمه وهشمت رأسه

ردّدت فى سرى قولها «مزقت جسمه وهشمت رأسه» ترديد المرتاح لتلك الخاتمة المشئومة التى مهدت لى سبيل الوصول إلى هذه الفتاة الجامعية الفلاحة ، وفهت بغير وعى وبصوت مسموع « ليرحم الله الشابين القتيلين »

قالت : لا ... لا تقل القتيلين ورفعت كفيها إلى السماء وقالت « ليتولى الرحمن القتيل بالرحمة » ثم خفضت كفيها وقد

ألقتهما على كتفى « ولتتولنى أنت برحمتك يازوجى العزيز » .

قلت : كيف أتولاك برحمتى وقد استقطرتك هذه الفاجعة بالذات ولم يبق فيك سوى الأنبيق .

قالت : صحيح ما تقول أن المرأة إنبيق للاستقطار ولكنها ليست المادة التى تستقطر ... قد يعطب الأنبيق يا سيدى . وقد يجرح قلب المرأة . ولكن الزوج الحكيم يصلح ما يعطب ويضمد ما يجرح . وطوقتنى بذراعيها وقالت : لقد التأم جرحى بمجرد اعترافى لك بالقسم الأوفر من حكايتى لأنك الزوج المداوى ... إن فى قلوب النساء ياسيدى مناعة تتغلب على كل حادث ، قد تجرح قلوب النساء وقد تتحطم وتسحق سحقاً ولكنها تبقى نابضة للحياة . وما من شىء يميت قلب المرأة سوى العقم .

فجعتنى حكاية زوجتى فنهضت وتوجهت إلى غرفة النوم فتبعتنى وتصدت لى بمجموع مغرياتها وكامل أنوثتها وأقبلت تتثنى دلالا وتبتسم كوردة فى بدء تفتحها .... لم أستجب إلى تصديها ، ولم أؤخذ بمغرياتها لأن نار العقل التى أضرمتها بحديثها ما زالت تحرق رأسى .

عبثاً حاولت التحرر من عنعنات العقل وتقديراته ، ولم أقو

على الانفلات من شباك الفكر ... لقدظفر ذهنى المتمرد بعاطفتى الجامحة فتركنى جسما مشلولاً يجثم فوقه العقل المسيطر .... عبثا حاولت الانطلاق إلى مراتع اللذة ومغانى الشهوة لأسكر بخمرة غير خمرة العقل .

أدركت زوجتى الشيطانة بغريزتها أى حرب تصطرع فى خاطرى وأى قتال ناشب فىّ بين قوتين متعادلتين . أحست بفطرة المرأة أنها قادرة على التسلط على عقلى وإرادتى متى أرادت ، وأن فى وسعها تحويلى من اتجاه إلى آخر معاكس .

إقتربت من فراشى وكنت قد توسدته ، وانحنت فوقى تقول «أيرضيك أن تدخن لفافة تهدىء بعض ما بك من ثورة مكظومة ؟

قلت : أية ثورة تلك التى تعنين ؟

قالت وهى تمط شفتها : لتكن الثورة التى أعنى هى الثورة الدائمة الاضطرام فى الرجل الحى ، وقدقربت وجهها منى قريبا فشممت رائحتها ، وعادت تقول وهى شبه مغمضة العينين .

« كل امرأة سيجارة للرجل، كل امرأة لفافة تبغ يدخنها الرجل تارة للذة والراحة ، وتارة للترفيه عن النفس ،

ومرة أخرى للهروب من النفس ، وكثيرا ما يحرق الرجال لفافاتهم اعتباطا لغير ماقصد أوغرض ؟!!

انه ليرضيني منك يا زوجي العزيز أن أكون لك تلك السيجارة تستطيب طعمها ، تنعم برؤية دخانها يتصاعد رقيقا يتماوج ويفنى . وبنارها تؤجج صدرها ، وبرمادها تنفضه باستهانة وعدم مبالاة ، أنه ليرضيني منك ياسيدى أن تخمد نارى برمادى ، أو تطرحنى بعيدا أحترق على مهل حتى ألفظ النسمة الأخيرة .

رفعت رأسي وقد كدت أطوق عنقها بذراعي ، ولكنها استوقفتني باشارة وقالت: أما الآن وقد غسلت صـــدرى بالاعتراف اليك يا زوجي الحبيب ولم يبق إلا أن أتم لك الحكاية ونحن فى خاتمها .

قات : أَلحكايتك المشبعة خواتيم أيضاً ؟

قلت : نعم ، ولكن لا محيص أولا من أن أتقدم اليك بعهد الرباط المقدس بأن أكون زوجة وفية ، ووالدة حنونا على أولادنا ، وحارسة أمينة على بيتك ،كما لا محيد لك عن أن

تسطر بيمينك عهد حياتنا الجديدة ، ولن تتم لنا السعادة الكاملة إلا إذا رفعت هذ الحمل الثقيل على صدرى.

قلت: حمل الرسائل المطبوعة على صفحة صدرك أليس كذلك؟

قالت : لا ياسيدى ، لا الرسائل الساذجة تلك التى توهمت أنها الجاثمة فوق صدرى هى القصد ، إنما الجبال الثقال التى أحملها هى هذه ، وقد مدت يدها إلى صدرها فانتزعت ثلاثة من دفاتر حساب صندوق التوفير ورمتها بين يدى .

قلت بعد أن اطلعت على الدفاتر ، ما علاقة هذه النقود بحديثنا ومن أين لك هذا المال وكيف حصلت عليه ؟

قالت هذا ما كنت أتوقعه ، والآن وحكايتى لم تتم بعد فهل لك فى إجلاسى بقربك فأقص عليك خاتمة الاعتراف ؟

واستطردت تقول :

. . . أودعنى القتيل ، يرحمه الله ، قبل سفره إلى الاسماعيلية رزمة من الأوراق النقدية ودفتر توفير فى صندوق البريد وقال : عندما أعود سنستعين بهذا المال المدخر على تأثيث عشنا ، ولما دهت الداهية وقد أذهلتنى حين نزولها

المفاجىء ، تمالكت حواسى ، وحرصت على الوديعة المدفونة فى صدرى فلما خمدت حدتها ، شعرت بأن ليس من حقى الاحتفاظ بذلك المال .

أطلعت والدى على الأمر وكنت قد كتمته عنه وعن والدتى أيضاً ، فأشارا على بوجوب عرضه على حضرة العمدة لأنه مثلى صاحب حق فى الارث . فلما فعلنا قال الوالد الحزين كنت مصمما على مفاتحتكم فى الأمر فور عودتى من الاسماعيلية ولكن المصيبة أفقدتنى وعيى وأقعدتنى عن الواجب ، ومد يده إلى جيبه فأخرج منها رزمة لا تقل ضخامة عن التى كانت معى وقال : خذى يا بنيتى هذا المال ، لقد كان الانجليز كرماء فى دفع دية عن زوجك القتيل .

قلت محتجة إن مال المرحوم ابنك مودع عندى . هاكه ياعمى تصرف به أنت وفق رأيك الحكيم . وأيضاً هذا الدفتر وقد سلمته إياه ، فقال وهو يمسح دموعه ، استبقى هذا المال عندك ، سأعود اليكم بعد أيام ولما عاد أثقلنى ثانية بالمال الذى استرده من صندوق التوفير وقال وقد أخذ يدى بين كفيه .

وليس من حق والد مثلى أن يرث ولدا لم ينفق عليه قرشا واحدا . ولا حدب عليه ، ولا مسح شعره بل من واجب الوالد البائس المنكود الذى أنكر ولده تشفيا من أمه البريئة أن يبكيه مدى الأيام الباقية من عمره ويبكى نفسه الحزينة حتى آخر ساعة من حيـــاته ، إنما أرجوك يا بنيتى أن لا تنسى إعطاء والدته المسكينة حقهـــا . لأن القليل من المال يسعف زوجها الطيب القلب ويعينه على تربية أولاده ، وزودنى بأدعية الأب الشيخ مكلوم الفؤاد وودع ولم يلتفت إلى توسلاتى ولا إلى رجاء والدى وكان يقول « لقدمات ابنى فليرحمه الله اما أنت يابنيتى فليسعدك الله » .

قلت : ألم تنقدى الأم حقها من الارث ؟

قالت رحت إلى حماتى فأعطيتها بسخاء من مال ابنها وهى لا تدرى أكثيرا مانقدتها أم قليلا انما كانت تبكى بدموع النادم على واجب قعدت الأم عن القيام به وكانت تقول . لقد حملت به فى الشقاء وولدته شقيا وعاش المسكين ومات شقيا ، ولم يبتسم له ثغر الحياة إلا حين رآك ، وليغفر الله لأبيه الذى أشقاه .

قلت : لم لا تترکی هذا المال لأبيك . أكان لزاما عليك حمله إلى ؟

قالت : لقد ترك لى والدى كل مايملكان من أرض وعقار وستكون أَنت الآمر المتصرف فىَّ وفيما أَملك ....

سامحنى يازوجى الحبيب إذا كنت ضننت عليك حتى اليوم بتقديم هدية منى تذكرك بى ساعة بعدى عنك حين تكون فى عملك ، لقد وددت أن تكون الهدية ساعة فوق معصمك تذكرك بدقات قلبى المتوالية فى حبك ، ولكنه كبر على يا زوجى الحبيب أَن تظن أَو تتوهم أن ثمن تلك الهدية هومن ذلك المال الموروث .

قلت لقد حملته إذن ليكون حجازا بيننا ؟

قالت هوّن عليك يازوجى الحبيب ولا تحمّل الأمر فوق ما يحتمل، ولا يغربن عن بالك انى ما عرفت الا الناحية البسيطة من أَخلاق ذلك الزوج المحروم،ولم ألمح فيه إلا بارقا من روحه الانسانى الساذج ، فعلى قدر هذه المعرفة وما تستأهل ، يكون الحساب . وانى لما كنت مؤمنة بك يازوجى الحكيم ،

وبقدرتك على تصريف الأمور بتبصر وحكمة ، اعترفت لك ، بل ألقيت حملى الثقيل على عاتق زوجى الرجل الرجل ، لقد نأت طويلا بحملى فعليك الآن أن تخفف عنى مانأت به ، بل عليك أن تحمل أثقال الزوجة وأحمالها ، بل يجب علينا أن ندفن الماضى بكل ما علق فيه وانطبع فى لوحته .... وليس على المرأة أن تسأل عن ماضى زوجها لأنه لم يكن لها ، وانكبت على يدى فقبلتها وأخذت ذراعى فتوسدتها و راحت فى نوم عميق

أحييت الليل أقلب الطرف مرة فى زوجتى الراقدة وقد كان انتظام نفسها وكل قسمة من قسمات وجهها المسترخية تنطق بتمام راحة النفس وكمال اطمئنان البال : ومرة فى دفاتر الادخار ورزمة الأوراق المالية وكأنها كانت حجازا يفصل ما بينى وبين زوجتى . وكنت أتخيل أن صورة خطيبها ذاك تمثل فى خاطرها وتشخص أمام عينيهاوستبقى ماثلة فى خاطرها كلما نظرت إلىّ .

رأيت الحزن يجلله والألم يحز فى نفسه فقلت له وأنا أضحك وأقهقه : يا لك من حنبلى يقف بين الحرام والحلال ،

ومتردد بين الخير والشر ، أنسيت يا صاح أن المرأة تحيي فى الساعة التى هى فيها ، ثم قلت بلهجة الناصح إن أَردت أَن تسترد ضميرك الضائع وتحييه أَن تذكر ماضيك ولا تنساه ... عد إلى ماضيك واذكر دائماً أنك شرقى وابن مصر ..... وأدعوك إلى شراء طاقة من أجمل الورد الأحمر تقدمها هدية لزوجتك الفلاحة الجامعية التى عرفتك وعرفت نفسها ..